(٢)

القدس الجديدة

لو أن أى زائر متحذلق من المريخ كان يتجول فى كنيسة ويستمنستر يوم الثلاثاء ٢ يونيو ١٩٥٣م، فلا بد وأن يدرك بسرعة أن ثمة احتفالاً عامًا كبيرًا على وشك أن يحدث. فقد كان هناك استعداد لحفل تتويج. ومع الوقار اللازم، كان ثمة حاكم جديد على وشك أن يقسم اليمين، ويجلس على العرش، ويضع التاج على رأسه، وتُؤدى له مراسم الولاء والطاعة، ثم يكال له المديح علنا. ولو أن تفتيشا جرى لعدة ثوان، لكشف لرجل الفضاء القادم من المريخ أن ما كان على وشك البداية كان قداسًا دينيًا، على الرغم من أن الاستعراض التمهيدى فى الخارج يكاد يكون عسكريا خالصًا. إذ إن الاحتفال كان به قدر كبير يتعلق بالرب - من خلال العهود التى قدمت له، بأن يكونوا مؤمنين به، ويصلون له، ويحمدونه - أكثر مما يتعلق بالسياسة. وكان الوزراء الرئيسيون الحاضرون والذين تتركز عليهم الأضواء وزراء دينيين، أما وزراء الحكومة فكانوا مدفونين فى مكان ما داخل زحام المتفرجين، ولم يكن لهم أى دور بالفعل فى الاحتفال. فهل يُحتمل أن هذه كانت ثيوقراطية؟(*)

وربما يكون القادم من المريخ قد قفز إلى استنتاج مضلل آخر: **أن الأمة التى يتم تتويج ملكها فى احتفال كانت تسمى إسرائيل، وأن عاصمتها القدس؛ لأن الخدمة بدأت بصلاة من سفر من الكتاب المقدس الخاص ببنى إسرائيل القدامى من افتتاحية المزمور رقم ١٢٢:**

«فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب. تقف أرجلنا فى أبوابك يا أورشليم. أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها، حيث صعدت الأسباط، أسباط

(*) حكومة دينية.

الرب شهادة لإسرائيل ليحمدوا اسم الرب. لأنه هناك استوت الكراسى للقضاء كراسى بيت داود. اسألوا سلامة أورشليم. ليسترح محبوك. ليكن سلام فى أبراجك راحة فى قصورك. . . ».

هذا الغموض بين لندن ـ انجلترا، والقدس ـ إسرائيل، عاد يتكرر فى عدة نقاط فى الاحتفال. حقًا كانت خدمة تتويج الملكة إليزابيث الثانية تتطلب منها أن تقسم اليمين الخاص بالمنصب، والذى كانت بدايته على الأقل متطابقة تمامًا مع عالم لندن انجلترا الحقيقى. وفى الجملتين الافتتاحيتين من القسم الذى أقسمته، أولا: أنها سوف تحكم البلاد بحكمة تحت سلطتها. وفى ذلك الوقت كانت هذه البلاد تتضمن الأجزاء الباقية من الإمبراطورية (بما فى ذلك الكثير فى أفريقيا)، والأملاك القديمة التى تتحدث الإنجليزية فى كندا وأستراليا وأفريقيا وسيلان، وكذلك بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية، وثانيا: أقسمت على أنها سوف تنشر العدل برحمة. وكل القضاة فى كافة المحاكم كانوا يجلسون باسم التاج فى جميع هذه الأراضى، وكانت الملكة تقسم بهذا لصالح كل واحد منهم. وهم بدورهم أقسموا على الولاء لها. وبهذا تصبح الرحمة جزءًا من القانون العام.

ثم رحلت الحقيقة المعاصرة وهبطت النزعة التصوفية الملوكية مرة أخرى. والجمل الأربع الباقيات ـ وهى الجزء الأكبر من القسم الذى تختم به التزاماتها كملكة ـ تلزمها بأن تدافع عن ديانة الدولة فى أحد الأجزاء، على الرغم من أنه هو الجزء الرئيسى من هذه الأراضى الكثيرة، أى انجلترا. وكان هناك شىء مهم يقال عن شخصيته الدينية الفريدة، شىء يمكن فهمه على أفضل وجه فى ضوء الإشارات المجازية (أو الميتافيزيقية) إلى بنى إسرائيل التى أوردناها بالفعل. بيد أن شيئا كان مشفراً، وكان يتطلب أيضا معرفة جيدة بتاريخ الصراع الدينى فى انجلترا على مدى القرون الخمسة الأخيرة.

وبينما كان كبير أساقفة كانتربورى، الدكتور چيوفرى فيشر يتولى القداس، سألها بشكل رسمى: «هل ستحافظين بأقصى قوتك على قوانين الرب وعلى المغزى الحقيقى للإنجيل؟ وهل ستحافظين بكل قوتك على الديانة الإصلاحية البروتستانتية التى أرساها القانون فى المملكة المتحدة؟ هل ستحافظين بصورة ثابتة

على استقرار كنيسة انجلترا، والمذهب والعبادة والنظام، والحكومة بالتالى، كما أرساها القانون فى انجلترا؟ وهل ستبقين كل الحقوق والامتيازات لرجال الإكليروس والأساقفة فى انجلترا كما يقضى القانون؟ وأجابت ويدها على الكتاب المقدس: «أعد بأن أفعل هذا كله».

ولابد أن الملكة كانت مدركة تمامًا لأن كبير أساقفة كانتربورى الذى أخذ عليها قسمها البروتستانتى والذى كان سيتوجها، چيوفرى فيشر، قد عينه فى منصبه هذا أبوها چورچ السادس. ولابد أنها كانت مدركة أيضًا أنه على الرغم من الكلمات المسطورة على الصفحة، فلا تستطيع هى أو هو فعل أى شىء من الأشياء التى أقسمت لتوها على أن تفعلها؛ إذ إن السلطة السياسية الحقيقية كانت مستقرة فى مكان آخر - فى أيدى البرلمان والسياسيين الذين كانوا مجرد مشاهدين للاحتفال. والواقع أنه لم يكن چورچ السادس - فعلا - هو الذى قرر أن الدكتور فيشر هو الرجل المناسب لتولى منصب رئيس أساقفة كانتربورى وكبير أساقفة انجلترا كلها بعد موت وليم تمبل سنة ١٩٤٤، وإنما كان الذى قرر ذلك هو رئيس وزرائه آنذاك ونستون تشرشل.

ومع هذا فإنها كانت تؤدى قسمًا عامًا بأنها، باعتبارها حاكمة، مسئولة عن الصالح الدينى والروحى لشعب انجلترا - تماما مثلما كان الملك سليمان مسئولاً عن شعب إسرائيل - كما هى مسئولة عن مصالحهم الدنيوية والمادية. ومع هذا فإن قدرتها المباشرة على التأثير فى الصالح الروحى والدينى للشعب كانت هامشية. فمن حيث الممارسة ليست بوسعها أن تفعل ما هو أكثر من أن تكون قدوة. وفى النظرية الدستورية، لا تتصرف الملكة سوى بناء على نصيحة وزرائها. فهل يتيح لها قسم التتويج الذى أقسمته أن ترفض تعيين شخص ما ينتمى إلى الديانة الكاثوليكية الرومانية فى منصب رئيس الوزراء؟ إنها ليست مخولة بذلك. وإذا ما أوصى هو بشخص ما ليكون رئيس الأساقفة الجديد فى كانتربورى وهى تظن أن لا يعتد به فى مسائل العقيدة، فهل يمكنها أن ترفض، بسبب القسم الذى أقسمته، التعيين على هذا الأساس؟ لم يكن هذا بوسعها. ففى سنة ١٨٢٩م كان الملك چورچ الرابع مجبراً بواسطة وزرائه على أن يوافق، ضد إرادته وضد تفسيره الخاص للقسم الذى

أداه فى حفل التتويج، على التحرير الكاثوليكى (وهو ما كان ضد رغبات أساقفة كنيسة انجلترا مباشرة). وسرعان ما صارت هذه السابقة جزءًا من القانون الدستورى الإنجليزى. وبطبيعة الحال فإن الحاكم قد يكون لديه الوعى، ولكن لم يكن له الحق فى رفض الموافقة على تشريع يتعارض مع وعيه. وإذا ما كان يشعر بهذا بقوة كافية فإن الطريقة الوحيدة أمامه ستكون هى التنازل عن العرش.

ومما تسبب فى ارتباك الزائر القادم من المريخ، فإن الأمور فى حفل التتويج ليست فى الواقع كما تبدو؛ إذ إن العناصر الباقية المعادية للكاثوليكية فى طقوس الاحتفال لابد وأنها كانت تعتبر أكثر من مجرد عناصر رمزية فى عيون أولئك الذين شاركوا فى الاحتفال. ومع هذا، فمن الواضح أن الحدث كان حدثًا دستوريًا أساسيًا فى حياة الأمة. بيد أن العالم الذى جرت فيه مراسم التتويج هو عالم من المجاز والوهم. وهذا أيضا ليس مصادفة. فالإنجليز «يتخيلون مجتمعهم» (إذا ما استخدمنا تعبير بندكت أندرسون المفيد) بفعل من أفعال الذاكرة. وهم يميلون إلى الإجابة عن السؤال «من نكون نحن؟» بأن يسألوا بدورهم «من كنا نحن؟» وحفل التتويج هو المثل الأعلى على عملية الفعل هذه. وبقدر ما هى إجابة غير مرضية - وسوف نستكشف مدى قصورها فيما بعد - فإن ذلك راجع لأن الإنجليز يحاولون سحب الماء من بئر جاف.

وحفل التتويج عالم تبدأ فيه الأمور الكبيرة بجسارة ولكنها، مثلما يحدث فى الحلم، تعنى شيئا مختلفًا تمامًا. وإسرائيل مجرد سياق لا يعنى إسرائيل الكيان الحديث. إنها وسيلة لتمييز انجلترا باعتبارها استثنائية وفريدة تربطها علاقة خاصة ببنى إسرائيل الذين تحدث عنهم العهد القديم، وهى علاقة المصطلح الفنى الدال عليها هو «علاقة تصنيفية» (وسوف نناقش معناها مناقشة وافية فى الفصل التالى). وهذا ما يجعلنا نتعقل الحقيقة الأخرى المحيرة، ومؤداها أنه طالما أن هناك عدوًا مؤسسيًا لانجلترا، فإن حفل التتويج الذى هو فعل من أفعال تذكر التاريخ - وهو تذكر مقصود - يقول إن هذا العدو هو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. كما أن السبب الكامن أيضا سبب تصنيفى. **ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية، على مدى وجودها، قد زعمت أنها هى نفسها إسرائيل الجديدة. فإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية هى**

إسرائيل الجديدة، فمن الواضح إذن أن انجلترا ليست كذلك. والوظيفة الأولية لهذه العناصر الرمزية المعادية للكاثوليكية فى الدستور الإنجليزى هى الحفاظ على وضعية انجلترا الفريدة، باعتبارها الشعب المختار الذى اختاره الرب خلفًا للشعب المختار الذى تحدث عنه العهد القديم. وقد طرحت مزاعم كل من الكنيسة الكاثوليكية والمزاعم اليهودية فى هذا الشأن جانبًا. وفى كل من الحالين، فإن الدستور الإنجليزى هو ما يسمى «ذو المجالس الخارقة Supersessionist». بيد أن هذه ليست عنصرية أو تعصبًا دينيًا؛ إذ إن الاعتقاد بأنه لا اليهودية ولا الكاثوليكية الرومانية ديانتين حقيقيتين، هو اعتقاد قد يتبناه أى شخص عاقل تمامًا ومتحضر. وعلى أية حال، فإن النظر إلى هاتين الديانتين باحتقار قد يؤدى إلى العنصرية أو التعصب.

وفوق هذا كله، فإن تصنيف العهد القديم هذا ينطبق على ذلك الجزء من مراسم التتويج الذى يسمى «المسح». وهنا كانت الرابطة بين لندن ١٩٥٣م والقدس قبل حوالى ثلاثة آلاف سنة أكثر وضوحًا وأكثر تضليلاً ـ وأكثر كشفًا. فالمسح بالزيت المقدس هو العلامة القديمة التى لا يمكن أن تخطئها العين على الكهانة والملكية. وقد كانت تستخدم بهذه الطريقة فى مصر القديمة، ولدى القبائل العبرية التى أقامت بها قبل ذلك الحدث المعروف باسم الخروج وأخذت هذا الطقس الرمزى الفرعونى لنفسها. والملك سليمان الذى حكم بنى إسرائيل بعد قرون قليلة من سنوات الخروج، كان حتمًا من بين أولئك الملوك القدامى الذين مسحوا بالزيت دليلاً على حكمهم الملكى.

كانت كلمات حفل التتويج سنة ١٩٥٣م واضحة صريحة فى هذه النقطة. فبينما وضع الدكتور فيشر قطرة من الزيت على بشرة الملكة، كان يتلو، أولا: «اتركى يديك تمسحان بالزيت المقدس»، ثم «دعى صدرك يمسح بالزيت المقدس»، وأخيرا «اتركى رأسك تمسح بالزيت المقدس» مثلما يمسح الملوك والكهنة والأنبياء، ثم غير طبقة صوته قائلاً و**«كما مسح سليمان ملكا على يد صادوق الكاهن وناثان النبى، كذلك تمسحين وتكرسين وتباركين ملكة على الشعب، الذين أعطاهم الرب إلهك لهم لكى تحكميهم...»**

وهذه الكلمات تجد لها صدى فى ترنيمة صادوق الكاهن المأخوذة عن النسخة

المعتمدة **سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ٣٩-٤٠ ، ومن ثم وضع موسيقاها چورچ فريدريك هاندل، وكانت هذه الترنيمة تنشد أثناء تتويج إليزابيث الثانية، كما كانت قد أنشدت فى حفل تتويج أبيها «فنزل صادوق الكاهن وناثان النبى وبناياهو بن يهوياداع والجلادون والسعاة، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود، وذهبوا به إلى جيحون. فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحى الملك سليمان. وصعد جميع الشعب وراءه، وكان الشعب يضربون بالناى ويفرحون فرحًا عظيمًا حتى انشقت الأرض من أصواتهم»**.

وتجادل ليندا كولى فى كتابها "Britons :Forging the Nation" بأنه فى القرن الثامن عشر كان استخدام الموسيقى أكثر الوسائل فعالية لترويج فكرة أن بريطانيا هى إسرائيل الجديدة:

«منذ اللحظة التى استقر فيها چورچ فريدريك هاندل فى لندن، أخذ يتملق المحيطين به، ولاسيما من يحمونه فى البلاط، بأن يضع فى موسيقاه مقارنات منتظمة بين حوادث التاريخ البريطانى وما كابده أنبياء وأبطال العهد القديم. والترنيمة التى ألفها لحفل تتويج چورچ الثانى سنة ١٧٢٧م، والتى كانت تعزف فى كل حفل تتويج لاحق، هى مثال نموذجى فى الموضوع. . . . ولكن مؤلفاته هى التى استغل فيها المشابهة بين انجلترا وإسرائيل إلى آخر مدى. إذ إن مؤلفاته الموسيقية إيستر، وديبورا، وأثاليا، ويوداس مكابيوس (التى ألفها على شرف الدوق كامبر لاند بمناسبة انتصاره على اليعقوبيين فى كوللودن) ويوشع، وسوزانا، ويافيثا، وبنى إسرائيل فى مصر، وهى مقطوعة موسيقية تقوم دليلاً على نفسها - كلها مؤلفات تتناول فى موضوعها الرئيسى تخليص بنى إسرائيل من المخاطر على أيدى زعماء يلهمهم الرب. وكان ما يريد هاندل من مستمعيه أن يخرجوا بعبرة وعظة واضحة: **فى بريطانيا العظمى، التى هى إسرائيل ثانية وأفضل، ثمة ماض عنيف مضطرب يجب علاجه على أيدى السلالة الهانوفرية البروتستانتية الجديدة القوية، مما يجلب عصرًا من الرخاء والوفرة التى لاتبارى»**.

وعبارة ليحفظ الله الملك تستخدم فى مكان آخر فى العهد القديم لإعلان تتويج

ملوك بنى إسرائيل كما جاء فى سفر صموئيل الأول، الإصحاح العاشر: «فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذى اختاره الرب إنه ليس مثله فى جميع الشعب. فهتف كل الشعب وقالوا ليحيى الملك». وعندما كان النشيد الوطنى، الذى تغيرت عبارته منذ موت جورج السادس إلى حفظ الله الملكة، ينشد بأصوات الجمع - وكل الأمة فى الحقيقة - فى نهاية حفل التتويج، اتجهت الملكة إلى الباب الغربى الكبير فى الدير وهى تضع تاج انجلترا وتحمل شعارات الملك القديمة. (وهى رموز منتظمة فى العهد القديم). **كذلك فإن تاريخ النشيد الوطنى يعود إلى عصر الأسرة الهانوفرية عندما، وحسبما توضح ليندا كوللى، تم إبراز الرابطة بين ملوك وملكات انجلترا وملوك بنى إسرائيل لأسباب إيديولوچية.**

وتمامًا مثلما كان سليمان يحكم وفقا للأسلوب الذى تم إرساؤه فى الأسفار الخمسة الأولى التى تشكل التوارة العبرية، فإن الملكة إليزابيث تسلمت نسخة من الكتاب المقدس المسيحى، الذى يبدأ بنفس هذه الأسفار الخمسة، أسفار موسى **«لكى تبقى جلالتك على الدوام وفى ذهنك قانون الرب وإنجيله، بمثابة القاعدة التى تسير عليها حياة الأمراء المسيحيين وحكوماتهم»**. وقال لها كبير الأساقفة نحن نهديك هذا الكتاب، أقيم شىء يستطيع هذا العالم توفيره، ثم يغير وسيط المجلس لكنيسة استكتلندا، الذى كان يسهم مع كبير الأساقفة فى المراسيم نغمة الصوت بقوله: **«هنا الحكمة؛ هذا هو القانون الملكى؛ هنا تجليات الرب الحية»**.

إلا أنه مرة أخرى لا تتوافق الكلمات مع الحقيقة تمامًا. إذ لم يكن أحد يتوقع من الملكة أن تصر على أن يراعى رعاياها كل تفاصيل قوانين موسى. ذلك أن ما تم التأكيد عليه هنا كان جانبًا من جوانب الهوية الوطنية، وليس مصدرًا للتشريع يستخدمه البرلمان. والجانب محل التساؤل لم يكن مجرد أن الأمة الإنجليزية أمة مسيحية، إذ إن هذه قد تكون نقطة تبسيط مخل. إذ إن ما كان يتم التأكيد عليه مرة أخرى، هو أنه بالطريقة التى تربط بها انجلترا نفسها مع الرب، يمكن مقارنتها بإسرائيل القديمة، كما يمكن مقارنة الإنجليز ببنى إسرائيل.

والحقيقة أن كل الدول الوطنية فى العالم الحديث، مع الاستثناء الصارخ لبريطانيا، تحدد الأغراض الأساسية المشتركة والواجبات المتبادلة بين الحكام

والمحكومين بواسطة دستور مكتوب. وأكبر وثيقة فى الدستور الأمريكى هى إعلان الاستقلال، الذى أقره الكونجرس فى الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦ م، والذى يعلن الحقوق الشهيرة:

«نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها براهين بذاتها، فإن الناس جميعًا قد خلقوا متساوين، وأن خالقهم أسبغ عليهم حقوقًا معينة لا يمكن انتهاكها، وأن من بين هذه الحقوق، الحياة والحرية والعيش فى سعادة؛ وأن لضمان هذه الحقوق قامت الحكومات بينهم؛ لتستمد سلطتها العادلة من موافقة المحكومين؛ وأنه حينما تصبح أية حكومة مدمرة لهذه الغايات، فمن حق الشعب أن يغيرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة...»

وهناك دول أخرى لديها إعلانات أخرى للمبادئ الأساسية فى دساتيرها المكتوبة، على الرغم من أنه لا يوجد دستور بهذه الروعة. وبريطانيا العظمى التى أشرفت على استقلال عدد من الأمم شديد التنوع، لم تكن كلها مضطرة إلى الصراع من أجل الاستقلال بهذه الصورة المؤلمة، رأت أن كل هذه الأمم كانت مجهزة بدستور مكتوب قبل أن تنفصل عن الدولة المستعمرة. ولكن بريطانيا العظمى نفسها ليس لديها دستور مكتوب، وليس لديها إعلان مدوى للحقائق التى هى براهين ذاتها، وبدلا من ذلك لديها حفل التتويج. ففى هذه المراسم يقدم الدستور البريطانى قوله الواضح الوحيد عن واجبات الحاكم المتوج، على الرغم من أن هذه الواجبات ينفذها وزراء منتخبون.

وبينما كان سيف الدولة تتم مباركته، استعدادًا لتمريره إلى الملكة بأيدى كبير الأساقفة وغيره من كبار الموظفين، كان يترنم:

«اسمع صلواتنا يارب فنحن نبجلك، وكذلك وجه وساند خادمتك الملكة إليزابيث لكى لا تحمل السيف عبثًا؛ ولكن لتستخدمه وزيرة للرب لإرهاب وعقاب من يرتكبون الشر، ولحماية وتشجيع أولئك الذين يفعلون الخير من خلال سيدنا يسوع المسيح. آمين».

وبينما يمرر السيف إليها، وبينما هى تمسكه، يستمر فى ترنيمته:

«تقبلى هذا السيف الملكى المجلوب الآن من مذبح الرب، وقد سلم إليك بأيدينا نحن الأساقفة وخدام الرب، على الرغم من عدم جدارتنا بهذا السيف. افعلى العدل، أوقفى نمو عدم المساواة، احمى كنيسة الرب المقدسة، ساعدى الأرامل واليتامى ودافعى عنهم، أعيدى الأشياء التى تلاشت وحافظى على الأشياء التى أعيدت، عاقبى وأصلحى ما هو فى فوضى، وثبتى ما هو فى حال ونظام سليم:

لأن فعل هذه الأشياء قد يجعلك مجيدة بكل الفضائل؛ وكذلك اخدمى بإخلاص سيدنا يسوع المسيح فى هذه الحياة حتى يمكن أن تحكمى إلى الأبد معه فى الحياة الآتية. آمين».

إن الملك يجسد التاج؛ والتاج يمثل كل السجايا الأخلاقية المرئية وغير المرئية التى يرغب الإنجليز فى أن تسبغ عليهم. أما ماهية هذه السجايا فقد أرسيت فى احتفال دولة وقور، وذلك الحدث الذى وقع يوم ٢ يونيو سنة ١٩٥٣م هو الذى افتتح عهد الملكة إليزابيث الثانية، وهو الذى تعثر فيه زائرنا المريخى المحتار.

ماذا كانت تلك السجايا الأخلاقية بخلاف التحديد الوارد فيما سبق؟ لا يمكن الإجابة بسهولة على الأسئلة بمجرد الإشارة إلى الكتاب المقدس. إذ إن الإجابة قد وضعت بعناية ضمن مراسم عملية التتويج نفسها. **وربما كان معظم الناس فى بريطانيا الخمسينيات راضين بالقول بأن القيم الجوهرية لمجتمعهم كانت مسيحية - والعبارة الأكثر شمولاً وهى «يهودية - مسيحية» لم تكن قد شاعت بعد - ولكن لابد أنهم كانوا يعنون المسيحية كما كانت مفهومة بالاتفاق السائد آنذاك فى الكنيسة الأنجليكانية.** ومن المحتمل أن الزعماء الأنجليكان فى تلك الفترة كانوا يصرون على أنه لايوجد فرق حقيقى بين مبادئ كنيستهم الأخلاقية وتعاليم الكتاب المقدس، ولكنهم بالطبع كانوا مخطئين - لأن الزعماء الإنجليكان بعد خمسين سنة، أو قبل خمسين سنة بالنسبة لهذا الأمر، كانوا هم أول من أصرّ على ذلك. إنها إحدى مزايا الدستور غير المكتوب أن الأمور التى تأخذها أمة على أنها من البديهيات، يمكن أن تتغير مع مرور الزمن وتغير الظروف. وتتويج سنة ١٩٥٣م الذى كاد أن يتطابق مع تتويج إدوارد السابع سنة ١٩٠٢، قال شيئًا مختلفًا للغاية عن الأمة وقيمها.

إذ كان الأساس الأخلاقى الأنجليكانى الموجود سنة ١٩٥٣م - وبوسع المرء أن

يسميه الأساس الأخلاقى الوطنى ـ ذا أصل حديث نسبيًا . إذ إن وليم تمبل سلف الدكتور فيشر كبير أساقفة كانتربورى، وبعد فترة طويلة أمضاها ككبير أساقفة يورك، كان مسئولاً إلى حد كبير عن إنتاج نظرية عن مسئولية الدولة تجاه مواطنيها وكانت نظرية أكثر نشاطًا وتدخلاً ـ وأشد يسارية ـ مما كان أسلافه يحبذونه . إذ عاش هو وجيله خلال الحرب العالمية الأولى وفترة الكساد الكبير . **وقرر أن كنيسة انجلترا لا تستطيع أن تنتحى جانبًا بعيدًا عن معاناة الناس العاديين فى انجلترا . وبصفة خاصة، أسهم فى الأفكار التى صارت مترجمة فى دولة الرعاية (الرفاهية) التى قامت فترة ما بعد الحرب، وكان ذلك مصطلحًا من اختراعه . وقد عقد فى زمن الحرب مؤتمرًا شهيرًا باسم «مؤتمر ما لقرن» ـ فى ما لقرن بورسسترشاير سنة ١٩٤١م ـ وفيه دعى أناس من ذوى المكانة والقدر ليناقشوا سويًا ـ وبصفة خاصة ـ كيف يبنون عالمًا أفضل بعد الانتصار فى الحرب العالمية الثانية . وكانت إحدى النتائج متمثلة فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٤٢م «Christianty and Social Order» (الذى باع ١٤٠ ألف نسخة وكتابه « The Church looks Farward» الذى صدر سنة ١٩٤٤م.**

وعلى الرغم من كونه ابنًا لرئيس أساقفة سابق فى كانتربورى، ومن كونه هو شخصيًا ناظر مدرسة عامة سابقًا، فإن تمبل كان ينتمى إلى حزب العمال (١٨ ـ ١٩٢٥)، وكان رئيسًا لرابطة العمال التعليمية . ويدين مجلس الكنائس البريطانى ومجلس الكنائس العالمى بتشكيلهما إلى حد كبير لمبادراته ونفوذه الذى جعل الكنيسة تؤيد مرسوم التعليم سنة ١٩٤٤م، الذى طرح مبدأ التعليم الحر لكل إنسان، والذى تموله الدولة . وقد وصف وضع تمبل اللاهوتى بأنه نوع من المثالية الهيجلية التى تحبذ الروابط الحميمة بين الكنيسة والدولة، والتى تشجع رجال الكنيسة الذين يتحدثون عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك الزمان . وكانت علاجاته للأمراض الاجتماعية تتراوح صعودًا وهبوطًا مع النزعة الأبوية للدولة . وكان اعتراضه على الرأسمالية مستمدًا من رومانسية ما قبل عصر التصنيع ـ إذ كان يساوى بين المنافسة التجارية والأنانية ـ أكثر من كونه مستمدًا من الاشتراكية . ولأنه كان رجلاً إنجليزيًا رقيق الحاشية راقيًا، وهو أفضل تجسيد لمذهب الهاوى حسن النية، كان وعيه قليلاً بالاقتصاديات أو أى فهم للصناعة . ولكن إنجازه كان

متمثلاً فى جعل نوع بريطانيا التى كانت آخذة فى الظهور سنة ١٩٥٣م (بعد ثمانية أعوام من موته) تبدو مثل نموذج لمجتمع مسيحى مثالى. وفى كتابه عن تاريخ الاشتراكية المسيحية فى بريطانيا يكتب آلان ويلكينسون: «من الحيوى أن ندرك أن تمبل لم يكن نبيًا اشتراكيًا معزولاً ولكنه كان واحدًا فكر ودبر، وفعل الكثير لتقوية الوفاق الاجتماعى. لقد كان تمبل داخليًا بأكثر مما يجب، كما أنه إلى حد كبير كان نتاجًا لمؤسسات قوية فى الكنيسة وفى الدولة، ولم يكن أبدا ليصير نبيًا ثوريًا ضدهما».

وكان جزء من تراث تمبل يتمثل فى الإيمان بأن النبوءة الاجتماعية الثورية لم تعد ضرورية، فقد صارت غير ذات قيمة بوجود الدولة ـ الراعية. إذ إن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الواسعة فى فترة ما بعد الحرب والتى قامت بها حكومة حزب العمال سنة ١٩٤٥، تبناها إلى حد كبير حزب المحافظين الذى عاد إلى السلطة سنة ١٩٥١م، حتى تلك الإصلاحات التى عارضها بمرارة عندما عرضت على البرلمان. وقد وصف هارولد ماكميلان رئيس الوزراء فى أواخر خمسينيات القرن العشرين هذا الوفاق (الذى كان ينتمى إليه) بأنه «اشتراكية أبوية». وكان تقرير بفريدج الصادر سنة ١٩٤٢م قد وعد بمجتمع فيما بعد الحرب تكون فيه كلمة: يحتاج ـ بالمصطلحات الحديثة الفقر بكل أشكاله ـ قد تلاشت بفضل أعمال الحكومة. وتحت مشروعه لابد من أن تشمل الناس من كل الطبقات مظلة تأمين إجبارية ضد كل أنواع المصائب. وعلى الرغم من أن المشروع كان تقدميًا بالنسبة لعصره، فإن عينة من فراسته فى الاتجاهات الاشتراكية يمكن استجلاؤها من هذا المستخرج: «فى السنوات الثلاثين القادمة، سيكون على ربات البيوت بوصفهن أمهات أداء عمل حيوى لضمان استمرار الجنس البريطانى والمثل البريطانية فى العالم». هذا الطموح كان مقبولاً بنفس الدرجة بعد عشر سنوات أيضًا. وإذا كان وليم بفريدج قد قدم بروفة الدولة الراعية فى فترة ما بعد الحرب، فلا شك فى أن وليم تمبل ـ وهو صديق بفريدج من أيام جامعة أوكسفورد ـ هو الذى قدم المباركة اللاهوتية للأخذ بها. وربما يقال إن فيشر كان أقل حماسة بصورة أو بأخرى. بيد أنه لم يقوّض ما أحرزه تمبل.

كان تمبل واحدًا من الآباء لما يسمى وفاق ما بعد الحرب فى بريطانيا، وهو وفاق

لم يواجه أى تحد مهم، وكما قال براوننج، كان الرب فى سماواته وكل شىء كان على ما يرام فى الأرض. لقد كانت خمسينيات القرن العشرين بحق هى أعلى ما وصلت إليه انجلترا الأنجيلكانية.

ويصف كوريللى بارنت فى مسلسله ذى الأجزاء الأربعة «Pride and Fall» هذا المشهد لعالم جديد يبنى فى بريطانيا ما بعد الحرب، بينما أستأنفت بريطانيا نفسها مكانتها كقوة عظمى، تحت اللافتة التى تدعو للسخرية «القدس الجديدة» لقد كان ذلك اسمًا اعتادت كنيسة انجلترا عليه (بدون التهكم)، وكذلك حزب العمال ومهندسو دولة الرفاهية الذين خططوا لها زمن الحرب. والواقع أن هذه كانت هى الكيفية التى رأوا بها ما كانوا يفعلونه. فقد ظنوا أنه من الممكن، حقًا، قيام هذه الدولة، وأنها كانت مهمتهم. وإذ خاضوا حربًا جيدة ضد هتلر، كانوا على أعتاب الأرض الموعودة. ويقول بارنت من ناحية أخرى، أن حكم التاريخ إنها كانت إضاعة فرصة فريدة لإعادة بناء اقتصاد وطنى. وهو يكتب:

«كان. . . . الشعب البريطانى بأسره هو الذى شارك فى حمل المسئولية مع السياسيين لكل الأعباء والضغوط الزائدة الهائلة التى تنشأ عن هذه الفنتازيا التى فرضت على بريطانيا فيما بين نهاية الحرب العالمية الثانية والعبث النهائى فى خداع النفس النهائى فى مغامرة حرب السويس. ومع ذلك فإنهم هم الذين شاركوا بنفس القدر فى تحمل مسئولية السبب الثانى فى العبء الاقتصادى فيما بعد الحرب، أى «القدس الجديدة». إذ إنهم طلبوا، ووعدهم السياسيون، أنه سوف يتم دونما تأخير تحقيق البرنامج الذى وضع زمن الحرب لرفاهية الدولة من المهد إلى اللحد، رعاية صحية مجانية، توظيف كامل، ومنزل مثالى لكل أسرة».

وعلى الرغم من أن تمبل كان كبير أساقفة كانتربورى لفترة قصيرة، ولكنها ذات أثر باق، فإنه حكم تيار الفكر الأنجليكانى الرئيسى منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى. فقد كان رئيسًا للجنة العقيدة التى كانت تجتمع فى سنوات ما بين الحرب، ثم تخلت تدريجيًا عن محاولة صياغة لاهوت أنجليكانى متمايز. وقد أسس تقريرها الذى نشر سنة ١٩٣٨م، مقاربة إذا لم تكن هى ما يؤمن به الأنجليكان، فقد كانت عن كيفية تصديقهم إياها على الأقل. إذ رفض تمبل فكرة المذهب الدقيق

والأكيد، وهى مقاربة قدر لها أن تكون قياسية فى كنيسة انجلترا بعده. فقد كان يفضل أن يضم إليه كل أولئك الذين يريدون أن يطلق عليهم اسم مسيحيين، بدلاً من أن يمتحنهم بالتعريفات اللاهوتية التى لا تجلب سوى استبعاد المتردد. ويقول چيمس كنت عنه:

«انطلق تمبل لكى يعطى رؤية متماسكة منطقيًا للعلاقة بين المسيحية والفلسفة، وقد فعل هذا بأن أخذ فكرة الغاية كفكرة مركزية لفهمنا للكون. وقد كانت حجته أن غاية عالمية لا يمكن أن توجد دون الوجود النشط لإرادة حقيقية، تكمن وراء العالم. والفعل القصدى يجب (أو هكذا بدا الأمر لتمبل) أن يكون شخصيًا، وهذا بدوره يشى بأن «الغاية الخلاقة» وراء العالم يجب أيضا أن تكون مرتبطة بالإله شخصيًا. وبهذه الطريقة بنى تمبل فكرة الإرادة الإلهية الحاكمة، أو الإله الشخصى».

ويحتاج المرء إلى أن يكون حذرًا من مصطلح «الرب الشخصى»، لأنه مصطلح مربك تمامًا، وبفضل التسويق الحديث، مع المفهوم المختلف تمامًا عن الرب الذى يصنعه المرء لنفسه، أو الرب الذى تم تصميمه لكى يناسب حاجات المرء «الشخصية» الخاصة أو ميوله الخاصة (مثلما يحدث فى أى بنك نمطى للمدخرات عندما يقوم بتطوير قرض شخصى يناسب ظروفك الخاصة). وثمة سؤال منتظم يطرحه الباحثون فى الاعتقاد الدينى هو «هل تؤمن بإله شخصى؟ (وقد سجل أحد الباحثين إجابة عنه تقول: «لا إننى أؤمن بالإله العادى فقط»). ولكن ما يسبب حيرة مثل هؤلاء الباحثين ممن يستطلعون الرأى العام، هو أن عدد الذين يقولون نعم أقل كثيرا من عدد الذين يزعمون أنهم يؤدون الصلاة بانتظام.

وعلى أية حال فإن معنى «الإله الشخصى» فى اللاهوت الذى وضعه تمبل (وفى السؤال الذى وضعه الباحثون فى الاستبيان) لا يختلف فى الواقع عن «هل تؤمن بإله يمكن أن يستمع إلى صلواتك؟ فالإله الشخصى فى هذا السياق يعنى إلها يمكن للمرء أن يتواصل معه وأن يرتبط به. وتمبل يستخدم كله «شخصى» بهذا المعنى، وليس بمعنى «مصمم حسب مواصفاتك الخاصة». وبعبارة أخرى، فإن الإجابة غير المتوقعة «لا إننى أومن بالإله العادى فقط» كانت هى الإجابة

الصحيحة. إذ إن أولئك الذين قالوا لا للإله الشخصى كانوا يحاولون أن يكونوا صحيحى العقيدة، ويميزون أنفسهم عن مفهوم العصر الحديث أو ما بعد الحداثة الذى يقول: «لك ربك ولى ربى». ومن المثير للسخرية أن رفض تمبل للمعايير العقيدية أساسًا لعضوية كنيسة انجلترا ربما يكون حقا هو الذى أرسى أساس المقاربة بعد الحداثة «ربك/ ربى» «للديانة الشخصية» بالمعنى التسويقى الحديث.

إذًا كانت رغبة تمبل فى تحديد عضوية الكنيسة القائمة لتضم الجميع قدر الإمكان تعبيرًا عن نزعته المتفائلة. وكان من حسن التوافق أن حالة البلاد فى وقت التتويج سنة ١٩٥٣م كانت جيدة. وكان اسم الملكة الجديدة إليزابيث تذكرة مباشرة بملكة سابقة تحمل هذا الاسم، هى الملكة الطيبة «بس» التى تحفظها الذاكرة الشعبية. وكانت الحرب قد انتهت منذ ثمانى سنوات. وكانت الأمة لديها إحساس قوى بأنها قاتلت بشكل جيد، من أجل قضية صحيحة. وكانت السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة سنوات صعبة، ولكن بحلول سنة ١٩٥٣ كانت الأحوال آخذة فى التحسن، كما كان نظام الحصص قد انتهى إلى حد كبير، وعادت البضائع إلى المحلات، والدمار الذى أحدثته القنابل كان يختفى من المناطق الحضرية. وكانت دولة الرعاية قد بدأت تجعل الأمر يبدو كما لو أن الظروف القاسية التى سادت ثلاثينيات القرن العشرين لن تعود أبدًا. وقد وضعت الصناعات الرئيسية فى الملكية العامة، وعند هذه النقطة كان ما يزال هناك تصور بأن ذلك سوف ينهى بسرعة نضال اتحاد التجارة. وخدمة الصحة الوطنية ـ التى كانت تقدم علاجًا طبيًا مجانيا للجميع ـ كانت رمزًا أوليًا لبريطانيا الجديدة المتحدة المهتمة. وبدا كأن رابطة جديدة تجمع بين الحكام والمحكومين قد تشكلت فى سنوات ما بعد الحرب، وقد تورطت الدولة كثيرًا فى التفاصيل اليومية لحياة الناس. وكانت دولة مسيحية وحانية، دولة جعلت شاغلها أن تلعب دور السامرى الطيب مع أى مواطن محتاج.

وكانت بشرى النجاح الوطنى شائعة فى الصحافة فى ذلك الصيف الذى تم فيه التتويج، البعثة البريطانية التى تسلقت قمة جبل إيفرست للمرة الأولى. (وفى الحقيقة أن متسلقى الجبال الذين وصلوا إلى القمة كانوا نيوزلنديين، ومرشد من نيبال، بيد أن هذا لم يكن يبدو مهمًا). كما أن التتويج نفسه كان يفيض بالأبهة

والرومانسية؛ إذ كانت الملكة الجديدة شابة وجميلة، كما أن زوجها كان وسيمًا بشكل مذهل (وكان بطلاً من أبطال الحرب)، وكان الاثنان أبوين محبين لعائلة ناشئة. ولم تكن كنيسة انجلترا بحاجة إلى التشجيع لكى ترسمهما فى صورة العائلة المسيحية المثالية، نموذجًا يجب على البلاد بأسرها أن تعجب به وتتطلع إلى تقليده (إذا لم يكن فى أسلوب الحياة، ففى الفضائل المنزلية على الأقل). هذه الصورة لعائلة سعيدة على نحو لا يكاد يصدق فى قصر باكنجهام، صارت شيئا مثل الرسالة الجوهرية التى حملها حفل التتويج نفسه. انظر كيف تفعل المسيحية الأنجيلكانية المعتدلة المعقولة حينما تتاح لها الفرصة، حسبما قيل آنذاك. وقد تكررت الرسالة فى ألف خطبة وموعظة كنسية.

وغنى عن القول، إن ما كان يجرى حقًا فى البيت الملكى كان خافيًا عن رؤية العامة، وكان السبب فى ذلك راجعًا إلى حد كبير لأن الصحافة كانت تقبل دون مناقشة عادة التبجيل والاحترام للشأن الملكى. وكان ما حصل عليه العامة أسطوريا أكثر منه حقيقة - ولكن لا شك فى أنهم كانوا يفضلون الأمور على هذا النحو. وكان أحد أغراض التتويج هو إضفاء قدر من الغموض الصوفى على الشخوص الملكية بحيث ينحيهم جانبًا عن البشر العاديين. وعلى الرغم من أن هذه الصوفية ليست مسيحية بالضرورة - نفس هذا الغموض كان يحيط بالإمبراطور اليابانى وعائلته الملكية - فإن أريج هذا الشعور بالخصوصية والتميز كان دينيًا بالقصد؛ إذ إن التبجيل الصوفى والتبعية الدينية التى قال عنهما والتر بيجهوت إنهما كانا «أساسا للملكية الحقيقية»، كانا فى حالة سليمة تمامًا.

وملاك هذه الخاصية الصوفية للملكية، فوق ذوات كل الأشخاص الملكيين الذين يرتدون التاج، فهم لذلك كانوا مختلفين وأكبر من الحياة، وأكثر أمانة وذكاءً وجمالاً، وأكثر امتيازًا وهم فوق كل نقد. وكانت كل إمكانيات الكنيسة والدولة تستخدم للإبقاء على الصورة هكذا. وكان هذا أيضا جزءًا من الأخلاقيات الأنجليكانية عند بداية خمسينيات القرن العشرين: وكان هذا أيضا متضمنًا فى الرسالة التى كان المقصود أن يحملها التتويج. فقد كان يضيف مزيدًا من الحلاوة على الإحساس الإنجليزى بأنهم أمة خاصة باركها الرب بشكل فريد.

كانت الاستمرارية أيضًا جزءًا من الرسالة. وقيل إن تلك كانت أمة قديمة وترجع كثير من تقاليدها إلى ألف سنة أو أكثر. وعادة وضع تاج على رأس الملك، أو الملكة، باعتباره أعلى علامة على السيادة، يمكن إرجاعه إلى الأباطرة الأوائل بعدما جعل قسطنطين الإمبراطورية مسيحية بصورة رسمية سنة ٣١٣م. ويذكر هربرت ثورستون فى دائرة المعارف الكاثوليكية «Catholic Encyclopaedia»، أن ڤالنتيان (٣٦٤)، وابنه جراتيان (٣٦٧م) قد توجا عندما توليا الحكم الإمبراطورى:

قام البطريرك أناتوليوس سنة ٤٥٠م بتتويج مارشيان وبذلك الفعل وضع أصل احتفال صارت له أهمية من أعظم ما يمكن فى المفهوم اللاحق للملكية. وفى البداية يبدو أنه لم تكن هناك فكرة عن إضفاء أية خاصية دينية على هذا التتويج: وربما كان اختيار البطريرك ببساطة راجعًا إلى الرغبة فى التخلص من الغيرة وتجنب إعطاء الذرائع لأصحاب المزاعم الأقوى فى نيل هذا الشرف. ولكن فى سنة ٤٧٣م بالفعل، عندما تم تتويج ليو الثانى فى حياة جده، نجد البطريرك أكاسيوس لايمثل بشخصه فقط فى الاحتفال، وإنما يتلو صلاة قبل مراسم التتويج. ولو كان جد ليو وليس أكاسيوس هو الذى فرض ذلك فعلاً، لكان على أساس فقط من القاعدة المرعية، بأن الإمبراطور الحاكم فى حياته هو المصدر الوحيد للشرف حينما يختار أن يسبغ أى جزء من سلطته لزميل أو شريك. وإذا تم اتباع التدخل الأول من البطريرك بدقة، صار العنصر الكنسى فى احتفال التتويج يتطور بسرعة. وعند انتخاب أناستاسيوس (٤٩١م) كان البطريرك حاضرا فى اجتماع مجلس الشيوخ والأعيان عندما قاموا باختيارهم الرسمى، والإنجيل فى وسطهم... ولا يجرى التتويج فى مبنى مقدس، ولكن الإمبراطور يقسم قسمًا بأن يحكم بالعدل، وثمة قسم آخر مكتوب يوخذ منه بواسطة البطريرك بأن يحافظ على الدين كله، وبألا يحدث أية بدعة فى الكنيسة... ثم بعد أن يكون الإمبراطور قد منح جزءًا من الفخامة الملكية، قام البطريرك بالصلاة، ثم أنشد كيريالیسون(*)، ثم وضع على سيده العباءة الإمبراطورية والتاج المرصع بالجواهر. ومظاهر التهليل أيضًا التى تصاحب خطبة الإمبراطور التى تحمل الوعود المعتادة عن العظمة، وتعقبها هتافات دينية الطابع؛ مثل «ليحفظ الرب الإمبراطور المسيحى».

(*) تعنى فى الصلوات المسيحية: يارب ارحم.

وقد وجد ثورستون دليلاً على كل من التتويج والمسح بالزيت فى طقوس التتويج التى كانت مستخدمة قبل الغزو النورمانى. وكان الشكل مستقراً بصورة أو بأخرى حسب الشكل الحديث، ناقصًا عناصر ما قبل الإصلاح الدينى التى يظن أنها كانت ذات أسلوب كاثوليكى رومانى، فى تتويج إدوارد الثانى سنة ١٣٠٧م. وصار هذا الطقس يعرف باسم «Liber Regalis» [أى العمل الملكى]: «وقد يقال حتى فى الوقت الحالى إنه يشكل الأساس للطقوس التى يتم بها تتويج ملوك بريطانيا العظمى» حسبما يقرر ثورستون.

وعندما تولى دكتور فيشر بوصفه رئيس أساقفة كانتربورى رئاسة حفل تتويج الملكة إليزابيث سنة ١٩٥٣م، كانت السابقة التى أرست هذا الفعل قد جرت قبل حوالى ١٥٠٠ سنة. وعندما كان يضع التاج على رأسها، شعر أن الأمة كلها كانت تحبس أنفاسها، كما قال هو فى وقت لاحق. فقد كان التتويج فى تلك السنة أول احتفال عام كبير ينقل بالتليفزيون على اتساع بريطانيا العظمى، وكان واضحًا من الحالة النفسية الوطنية أن كل أولئك الذين كانوا يشاهدون شاشات التليفزيون كانوا جزءًا من الفعل شأنهم شأن أولئك الحاضرين فى دير وستمنستر. وقد نصحت الصحف قراءها بأن يقفوا تحية للنشيد الوطنى، حتى ولو كانوا فى بيوتهم.

والمكانة التى أسبغت على الملكة، مؤداها أن الفعل المقدس ختم على الروابط المقدسة بين الحاكم والمحكوم، ومن ثم قالت شيئًا غامضًا وشاملاً فى آن عن هوية الأمة نفسها. بيد أنه لم يكن عقدًا بين الملكة والشعب. وإنما كان ميثاقًا بين الملكة والرب. وتم ختم الميثاق بفعل من جانب الدولة، وليس بأى فعل من جانب كنيسة الدولة لصالح الدولة. والأمة كلها، سواء من كانوا أعضاء فى كنيسة انجلترا أو أية جماعة دينية أخرى، أو ليسوا أتباعًا لأية كنيسة على الإطلاق، كانت داخلة فى الأمر. إذ كانت الأمة تتصرف مثل كنيستها، وكانت مخولة تمامًا أن تغير الاحتفال وتبدله إذا شاءت. وبمعنى ما، لم يكن يهم من الذى وضع التاج على الرأس الملكية. ولكن تبديل الاحتفال لم يكن هو مربط الفرس؛ لأنه كان يرمز إلى الكيفية التى كانت عليها الملكية القديمة، وكيف أنها مستمرة. وحقيقة أن المعنى الدقيق لمختلف التفاصيل فى الاحتفال قد ضاعت فى ضباب الزمان لم تكن نقيصة، حتى ولو جعلت تلك اللحظات غير مفهومة بالنسبة لأولئك الذين يشاهدون أو الذين

يشاركون فى الاحتفال. إذ كان يكفى أن إدوارد الثانى قد فعل هذه التفاصيل المختلفة فى سنة ١٣٠٧م. وقد تمرغ المعلقون بإيجابية فى غموض مثل هذه الأشياء التى يتضمنها التتويج، . . ومنها خاتم الكرامة الملكية الذى توافق قبول الملكة له مع صلاة كبير الأساقفة: **«بينما أنت فى هذا اليوم يتم تكريسك رئيسة وأميرة علينا، فكذلك استمرى بثبات مدافعة عن دين المسيح: إذ إنك إذا كنت غنية فى العقيدة ومباركة فى كل الأعمال الخيرة، فسوف تحكمين معه هو ملك الملوك، له المجد إلى الأبد ومنذ الأزل. آمين».**

واللغة العتيقة تضفى المزيد من السرية والغموض من نوعية ذهبية. فقد خرجت الملكة المتوجة من دير وستمنستر من الأضواء لتبدو شخصية مشعة وذهبية. وعلى الرغم من أنه ربما لم يكن قد استخدمت هذه اللغة، فإن الأمة أحست أنها قد مرت بسر من الأسرار المقدسة ـ ليس واحداً من السرين اللذين تعترف بهما كنيستها، ولا حتى من الأسرار السبعة التى تعترف بها روما، ولكنه سر مقدس آخر، إنجليزى تم اختراعه، جعل من اللغة لغة مقدسة، ومن خلال اللغة كانت الأمة بأسرها قد اكتسبت شرعيتها. والتقاليد التى يقوم هذا على أساسها ترجع إلى ماقبل حركة الإصلاح الدينى الإنجليزية، على نحو ما يتذكر شكسبير فى مسرحية ريتشارد الثانى: «لا يمكن لكل مياه البحر الهادر أن تمحو الشرف عن ملك مسح بالزيت المقدس».

ويصف إرنست كانتوروفيتز فى كتابه: The Kings two Bodies :

A study in Medieval Political Theology .

هذا بأنه نظرية أن للملكية ذاتين، ذات مقدسة وذات طبيعية (وهو صدى لوصف المسيح بأنه إله حقيقى وإنسان حقيقى) وهى فى القدرة الأولى تمثل المسيح الذى تحوز السلطة السياسية باسمه.

وآخر مرة كان مثل هذا التقديس للملكية على ذلك القدر من الوضوح، كانت فى عهد سميتها، إليزابيث تيودور. وقد زاد هذا من وهم أن عصراً إليزابيثيا ثانيا قد بدأ لتوه، وفيه ستعود بريطانيا (وانجلترا خاصة) إلى العظمة التى كانت مباركة خاصة من الرب لها.

ومع استمرار الملكية، استمرت الأرستقراطية والطبقية الاجتماعية. وفى كتاب

«England An Elegy» يصف روجر سكروتون كيف كان هذا التأثير الذى يسبب الاستقرار يعمل:

«كانت الملكية والطبقية الوراثية على السواء طريقتين من خلالهما كان للماضى والمستقبل صوت فى سياسات الحاضر؛ إذ إن طبقة الأشراف الوراثية، كما كانت مفهومة تقليديًا، تسببت فى أن المنصب السياسى يرتبط بالمكانة الاجتماعية الراقية، كما يرتبط بلقب يتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بقطعة من انجلترا... ومن ثم فإن المجلس الأعلى فى البرلمان (مجلس اللوردات)، تكون إلى حد كبير من أناس كانت مصالحهم ليست هى المصالح والاهتمامات قصيرة المدى للأحياء من البشر، ولكن المصالح بعيدة المدى للأقاليم. وأول مثل هذه المصالح يتمثل فى رغبة عميقة راسخة فى الاستمرارية الاجتماعية والسياسية؛ إذ إن الامتياز الذى تجلبه الوراثة لا يمكن تأمينه سوى إذا كانت الترتيبات الاجتماعية والسياسية التى ترفره مستمرة فى الوجود. ومن المحتم، بالتالى، أن مجلسًا أعلى وراثيًا سوف يرى نفسه حاميًا أو وصيًا على الميراث الاجتماعى والسياسى، وإلى ذلك المدى سيكون كابحًا للعملية الديموقراطية».

وربما يكون مستحيلاً أن نتصور ملكية دونما أرستقراطية من نوع ما، ولكن الأرستقراطية البريطانية كانت فى طبقة خاصة بها. لقد كانت هى الهرم الصلب الذى تقف الملكية علىٰ قمته. كانت هى مصدر صحبة البلاط التى أحاطت الملكية نفسها بها. لقد كانت هى مصدر الدماء الجديدة عندما كان المرشحون للعرش بحاجة إلى زوجات أو أزواج. وبصورة جماعية كانت تشكل مجلس اللوردات الذى كان يعطيها القوة السياسية المباشرة، كما أن الأرستقراطية، مع كنيسة انجلترا، كانتا تقدمان الشخصيات الدرامية التى لعبت أدوارها فى ذلك الزمان.

وفضلاً عن ذلك فإن الأرستقراطية البريطانية مرتبطة تقليديًا بحزب المحافظين، الذين عاد زعيمهم الأرستقراطى ونستون تشرشل (المولود فى قصر بلنهاهيم) إلى مشهد انتصاراته زمن الحرب، فى ١٠ دوانج ستريت، قبل ذلك بسنتين. وقال فى حديث أذيع بعد الانتخابات إنه كان يشعر أن هناك «إحساسًا متناميًا بالحاجة إلى إعادة بريطانيا إلى مكانها الصحيح، وهو إحساس تتحرق قلوب الناس إليه بعيداً عن صفوف أى تنظيم سياسى».

وكانت خسارة الانتخابات سنة ١٩٤٥م أمام حزب إصلاحى، وليس حزبًا ثوريًا، هو حزب العمال، هو الذى دفع المحافظين إلى القيام بعملية مراجعة أساسية لسياساتهم، وساعدهم على تقديم أنفسهم سنة ١٩٥٠م وسنة ١٩٥١م على منصة جديدة تمامًا، مصنوعة إلى حد كبير مما أخذوه عن حزب العمال. أما حزب الأحرار الأصغر، الذى يقف فى منتصف الطريق بين المحافظين والعمال، فقد رفض عرضا ببعض الكراسى فى الوزارة، بيد أن العرض بحد ذاته كان مقياسًا يدل على الوفاق. (وحتى هكذا، كسب المحافظون الأغلبية من مقاعد البرلمان دون أن يفوزوا بالأغلبية فى أصوات الناخبين) هذه المقاربة الوفاقية والوحدوية إلى الحكومة من جانب المحافظين أخذت تطلعاتها من تقرير دزرائيلى فى منتصف القرن التاسع عشر عن مذهب المحافظين «أمة واحدة» والذى تم تصحيحه على أساس سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء. وهو ينسجم تمامًا مع مذهب الأرستقراطية Noblese Oblige أى واجب نبلاء المولد فى أن يكونوا نبلاء وكرماء تجاه من هم أدنى منهم اجتماعيًا.

والأرستقراطية هى الحكومة الإقطاعية القديمة فى بريطانيا فى فراء جديد؛ أى أن حزب المحافظين هو القناة التى من خلالها احتفظت الأرستقراطية بيدها على آلة السحب الوطنية. ولذلك كان «الحزب الطبيعى للحكم»، الذى يقوده أبرز رجال الدولة فى العالم، تشرشل، مسئولاً عن مصائر الأمة عند بداية العصر الإليزابيثى الجديد (كما كانت الصحف تجاهر به). ولقى تشرشل نفسه أسمى تكريم ملكى، فقد تم تعيينه فى رتبة Knight of the Garter فى تلك السنة. وحقيقة أن الأغلبية الكبرى من النبلاء والأشراف كانوا من حزب المحافظين، كانت تعنى أن المجلس الأعلى فى البرلمان به أغلبية من المحافظين، ولكن فى سنة ١٩٥٣م، لم يبق منهم سوى قلة، وكان ذلك يبدو أنه النظام الطبيعى للأشياء.

وكانت مغازلة رئيس أساقفة كانتربورى لحزب العمال محل ملاحظة بالفعل. ولكنه كان قدر المحافظين خلال قرنين من الزمان أن يكون الحزب الطبيعى للعرش والكنيسة. وقد تماشت الأغلبية الكبرى من رجال الكنيسة الأنجليكان مع هذا. ومن ثم، فإنه بهذه الطريقة كانت إحدى رسائل التتويج سنة ١٩٥٣م بمثابة ثورة مضادة. وقيل إن الثورة الاشتراكية التى تنادى بالمساواة، وحتى النزعة الجمهورية التى يحض عليها أولئك الذين على يسار حزب العمال، لم تكن على الطريقة

الإنجليزية؛ وكون أن حزب العمال قد أمسك بزمام الحكم لفترة قصيرة فى السنوات التى أعقبت الحرب، وهو جزء من الطريقة التى تطيح بها الأمة من حين لآخر بالمحافظين؛ بسبب تخلفهم عن حقائق العصر؛ وكون أنهم عادوا الآن إلى صهوة الجواد، فإن حزب النزعة الوطنية يمكن أن يستحق العودة إلى مكانه الصحيح تحت شمس السياسة فى زمن يناسب التتويج. لقد كان المحافظون يدافعون عن العرش والكنيسة، ولكن الرأى القائل بأن لكل رجل محطة يجب عليها أن يعرف متى ينزل فيها، له وجاهته أيضًا.

والعلاقة بين الملكية والأرستقراطية وحزب المحافظين والبناء الطبقى الإنجليزى كانت واضحة بما فيه الكفاية، على الرغم من أنها تسببت فى إزعاج الإنجليز. فقد كان من الضرورى إظهار أنها كانت تخدم غرضًا ما أسمى. إذ كان جميع رجال الكنيسة فى انجلترا يذهبون إلى المدارس العامة وإلى جامعة أوكسفورد وكمبردج للدراسة، وكان لهم أن يبرروا العلاقة بين الطبقات فى انجلترا على أساس الاعتماد والمسئولية المتبادلة، لصالح الجميع. وفكرة أنه لا يجب أن تكون هناك طبقات اجتماعية إطلاقًا كانت ستبدو فكرة غريبة تمامًا عليهم. ولذلك كان التتويج احتفالاً بالطبقة، ولكنه احتفال ببناء طبقى له التزامات مشتركة وأغراض عامة (وبذلك يمكن أن يتوافق مع المبادئ المسيحية). ألم يكن هذا هو الدرس الذى حملته الحرب الحديثة، عندما كان الضباط البريطانيون، وغالبيتهم من الطبقة الوسطى أو العليا، يقودون الجنود من كافة الطبقات الأخرى الذين هم أدنى منهم عسكريًا واجتماعيًا لكى يحرزوا انتصارًا مجيدًا؟

لقد كانت الطبقة رمزًا كامنًا فى التتويج. وكان الممثلون الرئيسيون فى الدراما إما من الأعضاء الكبار فى الأرستقراطية وإما من القساوسة الكبار فى كنيسة انجلترا. وبالاتفاق، لأنه فى مقابل كل صف من القساوسة كان هناك صف من النبلاء، كان أساقفة المدن يخاطبون بلقب «سيدى» وهى الصيغة المناسبة لمخاطبة أحد البارونات، وكان كبار الأساقفة يخاطبون بعبارة «صاحب العطوفة»، وهى الصيغة الملائمة لمخاطبة الدوق. وفيما بين القساوسة والنبلاء لم يكن هناك فرق حقيقى على المستوى الاجتماعى. وفى فقرة من مراسم التتويج عندما يجب على المشاركين أن يؤدوا يمين الولاء للملكة المتوجة، كان نظام التقدم نحوها يخضع لنظام طبقى صارم وفقًا للمعايير الطبقية الاجتماعية.

وكان أول من أدى يمين الولاء كبير أساقفة كانتربورى. وعلى أية حال سيكون من الخطأ أن نعتبر هذا بمثابة رمز على أنه فى الدستور الإنجليزى كانت السلطة الروحية خاضعة للسلطة الزمنية. ولكن الحال هى أنه فى شخص الملك تجتمع السلطتان الروحية والزمنية. ولم تكن هناك فى الكنيسة ولا فى الدولة سلطة أعلى من سلطة التاج. وهربرت ثورستون فى مقالته بدائرة المعارف الكاثوليكية، والتى سبقت الإشارة إليها، أوضح التأثير الكبير لتتويج أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على تطور التتويج فى جميع أنحاء أوروبا قبل العصور الوسطى. وحينما كانت مراسم التتويج تجرى فى روما، كان من ملامح التتويج ولاء الإمبراطور وقسمه بأن يخلص للبابا. والمقابل الواضح لهذه الأدوار فى التتويج الإنجليزى الحديث - وهو قسم كبير الأساقفة بالولاء للملكة - يبدو معقولاً أكثر إذا ما نظر إلى الملك على أنه حل محل البابا، وهو ما كان منذ زمن هنرى الثامن يشكل النظرية الدستورية.

وهكذا ركع الدكتور فيشر أمام الملكة ووضع يديه بين يديها ناطقًا بكلمات الولاء، وهى وعد بأن يخدمها بإخلاص وبصدق. وقد كرر الأساقفة الباقون من كنيسة انجلترا هذا، وركعوا جميعًا فى أماكنهم. وقام بنفس التصرف دوق إدنبره، زوج الملكة، الذى وعد بأن يكون «رجلك على مدى الحياة، وفى العبادة الأرضية...». والعلاقات التى تفرض هنا كانت فى أساسها علاقات إقطاعية - واجب الأدنى فى المرتبة الاجتماعية بأن يقدم الحماية بسلاحه لمن هو أعلى منه. وقد تبع الأمير فيليب اثنان آخران من الذكور البالغين الحاضرين من الأسرة الملكية، دوق جلوسستر ودوق كنت، وهما بدورهما تبعهما طابور طويل من الدوقات والماركيزات والإيرلات، والفيكونتات والبارونات. وعندما انتهت مراسم الولاء - ولم يشترك أحد من العامة - دقت الطبول العسكرية، كما نفخت مجموعة من الأبواق، وأطلق الجمع كله صيحة مدوية «حفظ الله الملكة إليزابيث! عاشت الملكة إليزابيث! عاشت الملكة إلى الأبد!» على حسب ما كان مرتبًا فى المراسم.

وبغض النظر عن التغير فى الجنس، فإن هذه كانت هى بالضبط كلمات النشيد الذى ألفه هاندل والذى أنشدته الجوقة من قبل، والذى تم اقتباسه من سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ٣٩ (على نهج مسح الملك سليمان): «حفظ الله الملك، عاش الملك، عاش الملك إلى الأبد». يقول نص العهد القديم: «فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحى الملك سليمان».

الذى يمكن أن يجده زائر من المريخ عجيبًا فى هذا كله هو أنه يبدو أن له علاقة ما تربط انجلترا مع إسرائيل القديمة، ولكن لا علاقة له البتة ببقية الأراضى التى توجت الملكة لكى تحكمها. فما علاقة كل هذه الإشارات إلى الملك سليمان وصادوق الكاهن وهلم جرا، بشعب سيلان مثلاً أو مستعمرات بريطانيا فى جزر الهند الغربية؟ وما الذى كان يفترض أن يخرج به الكاثوليك فى كندا أو المسلمون فى باكستان من هذه الإشارات؟ لماذا يجب على «مليكتهم» أن تقسم بأن تسبغ حمايتها على ديانة واحدة فقط فى جزء واحد فقط من كل هذه الأراضى الكثيرة؟ ولماذا يجب عليهم أن يهتموا بشأن نزاع قديم ما مع الكنيسة الكاثوليكية؟ فالواقع أن سريلانكا (سيلان سابقا) قد اختارت أن تصبح جمهورية سنة ١٩٧٢م. كما اختارت پاكستان هذا سنة ١٩٥٦م، وجنوب أفريقيا سنة ١٩٦١. وتبعتها بلاد أخرى كثيرة، خاصة مستعمرات بريطانيا السابقة فى أفريقيا. وبقيت مستعمرات بريطانيا السابقة فى الكاريبى من أملاكها (والملكة هى رئيسة الدولة) وكذلك فعلت كندا، على الرغم من أن الجزء الفرنسى بها بقى قلقًا من أجل الاستقلال الذاتى. وفى استراليا ونيوزيلندا النزعة الجمهورية مسألة حية، على الرغم من أن هذه النزعة موجودة فى استراليا أكثر منها فى نيوزيلندا. ومن ثم فإنه من السهل استنتاج أن التتويج كان أبعد ما يكون عن جمع شمل بلاد الكومنولث البريطانى والإمبراطورية سويًا، وإنما كان إما عامل تقسيم وفرقة، أو كان خروجًا كبيرًا عن الموضوع فيما عدا كونه مشهدًا للفرقعة ومهرجانًا. لقد كان يتعلق بالإنجليز وهم يحادثون أنفسهم فى مصطلحات لا يفهمها أحد سواهم.

والحقيقة أنه كانت ثمة رابطة، وهى رابطة غاية فى العمق والشمول. وعلى الرغم من أنها كانت ماثلة فى أذهان الشعب الإنجليزى وهو يشاهد حفل التتويج بالضرورة، فإنه لم يحدث أن تم التصريح بها علنًا فى أى مكان؛ إذ إن الرابطة بين كل هذه الأمم الممثلة بطرق مختلفة فى دير وستمنستر فى ذلك اليوم من سنة ١٩٥٣، هى أنه فى فترة ما من ماضيها، قد استوطنها أوغزاها أبناء تلك الأمة التى تسمى بريطانيا العظمى والتى تشكل انجلترا أربعة أخماسها. **وكانت القوة الدافعة فى حملة الغزو الكبرى هذه وموجة الاستيطان الكبرى التى صاحبتها هى بالضبط الاعتقاد الإنجليزى بأن أمتهم قد اختارها الرب وحدها لدور فريد فى تاريخ العالم. وكان دور**

هذه الأمة المختارة، التى ورثت مهمة إسرائيل القديمة، هى نشر الحضارة الإنجليزية - أى الحضارة البروتستانتية - فى أركان الدنيا الأربعة. وأولئك الذين قاوموا إنما كانوا يقاومون إرادة الرب، ويمكن إزاحتهم جانبًا، أو استئصالهم، إذا دعت الضرورة لذلك. لقد كان التتويج احتفالاً بهذا التاريخ غير العادى، وأعطى الأمة الإنجليزية قدرًا هائلاً من الرضى. وكانت أوائل خمسينيات القرن العشرين فترة لا تناسب الشعور بالذنب من الاستعمار بحيث تقضى على شعور الرجل الإنجليزى بالفخر بإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس حتى سنة ١٩٥٣م. إذ كانت الإمبراطورية شيئًا ينبغى شكر رب الإنجليز عليه. إنه هو الرب الذى جعل هذا ممكنًا.

ونتيجة تحليل مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م هى مجرد وضع رصيد كبير من التاريخ والأساطير واللاهوت. وفى قلب هذه الأيديولوچيا (وليس هناك اسم آخر لها) تكمن فكرة الاختيار، ميثاق قائم على أساس علاقة تصنيفية بالتاريخ المسجل فى العهد القديم. وكان الافتراض هو أن التاريخ الإنجليزى سوف يحدث فى خطوط موازية لتاريخ بنى إسرائيل القديم، بحيث إن ما كان حقيقيًا وصحيحًا فى تاريخ بنى إسرائيل سيكون أيضًا، وبمعنى ما، صحيحا وحقيقيا فى تاريخ الإنجليز. ولن تكون التشابهات واضحة على الدوام. كما أن التفسيرات سوف تختلف. **ولكن فى كل الأحوال إذا كانت انجلترا غير مخلصة للرب، فإن الرب سوف يعاقبها بالهزائم والمصائب؛ أما إذا كانت انجلترا مخلصة، فإن الرب سيكافئها بالنصر والسلام والازدهار. وبشرط الحفاظ على الميثاق، فإن الرب سوف يتدخل فى أوقات الخطر الداهم. فإن الإعصار الذى ساق أسطول الأرمادا الإسپانى إلى الصخور سنة ١٥٨٨م قد عرف باسم «الريح البروتستانتية».** كذلك فإن مثل هذه الثقة لم تكن غائبة فى أوقات أكثر علمانية. إذ إن القصة العتيقة عن هذا الطريق البروتستانتى إلى الخلاص - والتى تروى عن أحد الأفراد ولكن يمكن تطبيقها بسهولة تامة على البلاد بأسرها - كانت هى القصة التى كتبها چون بونيان تحت عنوان The Pilgrims Progress. والبطل يناضل لكى يشق طريقه صوب المدينة السماوية وهو يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً، وينجو من مواجهة مرعبة فى نقطة ما مع عملاقين قبيحين، هما الوثنى والبابا. كان هذا الكتاب الثالث فى ثلاثية پروتستانتية تتألف من النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس وكتاب فوكس

Book of the Martyrs ، وهذه الثلاثية حددت ما ينبغى أن يكون عليه الرجل الإنجليزى البروتستانتى . وحسبما تكتب ليندا كولى ، فإنه بهذه الوسيلة تم تعليم الدرس بأن المعاناة والتعرض المتكرر للأخطار هى من علامات الرحمة ، وإذا ما قوبلت بالصبر والتجلد انتهت بالنصر والفوز تحت رعاية الرب :

«هذه الطريقة فى إضفاء المعنى على الأحوال المعاكسة ، ومواساة أنفسهم فى مواجهتها استمرت بشكل بديل فى القرن العشرين . فأثناء الحرب العالمية الأولى كان جنود بريطانيا فى الخنادق يرجعون باستمرار إلى كتاب Pilgrims Progress ، بل إن البعض كانوا يقارنون أنفسهم بكريستيان بطل الرواية . . . وتشبه أنفسهم بكريستيان كان من الواضح أيضا أنه طريقة لتشجيع أنفسهم وتقويتها ضد الخطر والمعاناة ، كما أنها طريقة للتأكيد لأنفسهم أن قضيتهم عادلة . وعول البريتون على الثقافة البروتستانتية أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما ساق الألمان الجيش البريطانى خارج فرنسا سنة ١٩٤٠م متقهقراً ، ولم يتم إنقاذ الناجين سوى بجهود عشوائية وجزئية قامت بها جماعات من أصحاب القوارب المدنية الشجعان فى عملية فشل مزرية ، فإن هذه الحادثة تحولت بسرعة على أيدى البريطانيين أنفسهم إلى عملية إنقاذ ميمونة ؛ إذ إنهم بالغريزة وتحت الضغط ضمنوا هذه الحادثة فى التفسير البروتستانتى لتاريخهم ، وصاغوا المبدأ الأخلاقى المعتاد : أن الممارسات المتحضرة بين البريتون المتحضرين قد كسبت بفضل العناية الإلهية ضد عدو قوى وشرير» .

وطبعًا رتب الرب أن يكون البحر هادئًا ، فى هذه الأيام الأربعة الحساسة ، ولو أن عاصفة هبت ، لما أمكن تحقيق مثل هذا الهروب .

وعلى العموم كان البريطانيون ، والإنجليز خاصة ، خجلين من أن يعلنوا هذه العلاقة الخاصة مع الرب ، وبقدر أكبر مما أحس به الأمريكيون - بالتأكيد - من خجل . وعند النظرة الأولى كان هناك الكثير من التعبير الإنجليزى المخفف النمطى فى مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م . إذ كان التباهى أو الإعلان بشكل صارخ أن الإنجليز هم الأفضل . هذه القناعة العميقة بالخصوصية الوطنية كانت ثمينة بحيث لا يمكن استعراضها . إذ كان يكتفى بالإشارة إليها ، ولا تعلن تمامًا أبدًا . ولا يعنى هذا أنها لم تكن محل مشاركة عامة . وهناك دائمًا بعض أشياء لا يشعر الناس أنهم بحاجة

إلى أن يقولوها، لا سيما حينما تكون متضمنة فى المؤسسات الوطنية المألوفة مثل الملكية أو الكنيسة القائمة.

ويمكن استجلاء الحالة الذهنية الإنجليزية فيما بين سنة ١٩٤٠م وسنة ١٩٦٠م من مقالة مؤثرة عنوانها: The Idea of Christian Society كتبها ت. س. إليوت، الذى كان أثناء حياته يعتبر ليس فقط أكبر شعراء العصر، ولكنه كان يعتبر كذلك أشهر محلل اجتماعى. وبشكل أو بآخر أخذ إليوت الرغبة فى وجود مجتمع مسيحى، متمايز عن المجتمع العلمانى أو الوثنى، وكتب:

«ولكن الثقافة الإيجابية يجب أن يكون لها نظام قيم إيجابى، ويجب أن تبقى المخالفات هامشية، بحيث لا تميل سوى إلى تقديم إسهامات هامشية... وإذا ما كانت فكرة المجتمع المسيحى مستوعبة ومقبولة، فيمكن تحقيقها إذن، فى انجلترا، من خلال كنيسة انجلترا... وقد تمسكت بأن فكرة المجتمع المسيحى تتضمن بالنسبة لى وجود كنيسة واحدة ستهدف إلى احتواء الأمة بأسرها. وما لم يكن لها هذا الهدف، فإننا سننزلق إلى ذلك الصراع بين المواطنة وعضوية الكنيسة، وبين الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة، وهو الصراع الذى يجعل الحياة الأخلاقية اليوم غاية فى الصعوبة للجميع...» [وهو يعنى بالاحتواء التضمن أو الاحتضان].

وبعد نصف قرن من التتويج، صار البريطانيون معتادين على التعامل مع احتفالات الكنيسة باعتبارها ممارسة فى تصريح شاعرى. والأزواج الذين لا يؤمنون بالرب، أو الذين ليس لديهم قصد بالاستمرار فى الزواج فترة أطول مما يشعرون أن يروق لهم، يذهبون بانتظام إلى الكنائس الوطنية لكى يقطعوا على أنفسهم عهداً أمام المذبح وأمام الرب القوى «حتى يفرقنا الموت». وما يزال كثيرون منهم يعمِّدون أبناءهم ـ التنصير هو التعبير الأكثر شيوعًا حتى الآن ـ بينما هم لا يعنون كلمة واحدة من الوعود التى يتطلب منهم أن يتعهدوا بها. وإذا كانوا يعرفون أى شىء عن مراسم التتويج سنة ١٩٥٣م. فإن من المحتمل أن يفترضوا أن أولئك الذين شاركوا فيه فعلا قد فعلوا هذا بنفس روح التمثيل الرصينة ولكن دونما إخلاص. وسيكونون مخطئين فى هذا. لقد بدأ تآكل لغة الاحتفال، ولكن كنيسة انجلترا كانت ما تزال تحظى باحترام كبير، ولا يمكن العبث بها. وكان من المفترض أن الخدمات العامة التى تقوم بها تعنى ما قيل إنها تعنيه.

وإذا ما كان مطلوبًا القيام بمواءمات عقلية لفهمها، فقد كانت فقط المواءمة من اللغة الواقعية إلى اللغة الرمزية ومن فك رموز الأعمال الطقسية. وكان ذلك ما يزال يمثل نوعًا ساريًا من الحقيقة. هذه المقاربة إلى معنى الطقوس الكنسية قيض لها فيما بعد أن يتم التصديق عليها من جانب لجنة العقيدة فى كنيسة انجلترا سنة ١٩٨١م، وهو ما قرر بوضوح أنها كانت تحاول أن تؤسس ما كان منذ زمن طويل الأسلوب الأنجليكانى فى هذه الأمور: «إن هذه المعتقدات التى تستحوذ على عقول الناس بالتضمين لها قوة إقناع كبرى من التأكيدات... وكلما كانت المذاهب أكثر شمولاً وأساسية؛ فإنه يحتمل أكثر أن يتم حفظها فى الأساطير والرموز والطقوس ونماذج السلوك فى الجماعة المؤمنة بدلاً من أن توضع بوضوح فى الاقتراحات الرسمية».

ولذلك، إذا كانت أيمان التتويج التى تم القسم بها ذات جزئين عن الإدارة المدنية للكومنولث والإمبراطورية التى تضم حوالى ٤٠٠ مليون نسمة، وأربعة أجزاء عن الحفاظ على امتيازات كنيسة انجلترا، فإن هذا أوضح فقط مدى أهمية كنيسة انجلترا. وإذا كان هذا صحيحًا حقًا، كما كتب وليم تمبل سنة ١٩٤١م ، أن كنيسة انجلترا كانت المؤسسة الدينية الفريدة فى العالم التى أخذت المسيحية بشكل صحيح، على حين أخذها الباقون بشكل خاطئ، وإذا كان أخذ المسيحية بطريقة صحيحة قد صنع الفرق بين الأرواح الذاهبة إلى السماء بعد موتها أو الذاهبة إلى الجحيم، فإن كنيسة انجلترا إذن كانت حقًا من الأصول الوطنية، ولها أهمية لا تبارى باعتبارها قيمة مركزية. وكان هذا هو أكثر ما يفخر به الإنجليز ويحمدونه. فقد كان فى قلب ميثاقهم مع الرب. والوعود بالإدارة المدنية الحكيمة وبالعدالة والرحمة فى ساحات القضاء، كانت ذات أهمية أدنى بالمقارنة مع هذا.

وفيما بعد، كانت كنيسة انجلترا نفسها تدخل فى نوع آخر من التناول لاحتفالاتها وتكرر الكلمات كما لو كانت حقيقية دون أن يكون هناك اقتناع كامل ونهائى بها. وحقيقة أن الأجيال السابقة من الأنجليكان قد أخذوا كلماتها الرسمية باعتبارها أفعالاً حقيقية حرفيًا كانت لها قيمة برهانية، بيد أنها ليست تعهدية. ومن الواضح أن عادة رجال الإكليروس فى النطق بكلمات رزينة فى المناسبات العامة، فى حين لايوافقون عليها بينهم وبين أنفسهم، كانت عادة واسعة الانتشار.

ولكن هذه لم تكن حالة الكنيسة سنة ١٩٥٣م؛ إذ كانت مراسم التتويج تعنى أن ما يقال هو المعنى حقًا. وعدم الحفاظ على أن ما يقال هو المعنى قيض له أن يصبح فيما بعد عاملاً قويًا فى هدم الثقة العامة فى الديانة الرسمية، فقد اعتبرت كلها تدريجيًا استعراضًا بلاغيًا وأسطوريًا ودينيًا - أو أنها غير حقيقية بالمرة. وهذه هى المتاعب التى تنجم عن دستور غير مكتوب، ويمكن أن يتفكك. ولا يوجد شخص إنجليزى يؤمن حقًا بكل شىء كان التتويج قد حدث من أجله: بل إن كثيرين الآن لا يؤمنون بأى شىء فيه. وكل أمريكى يؤمن بكل شىء يدافع عنه الدستور الأمريكى.

وليس هناك بعد آخر لمراسم التتويج لم يكن واضحًا فى الحال لأى مراقب من الخارج؛ إذ إن قسم التتويج الذى أقسمته الملكة كان يتضمن الإيماء إلى تهديد غير محدد. فلماذا كان عليها أن تقسم على أن تستخدم «أقصى سلطتها» للحفاظ على امتيازات كنيسة انجلترا، ما لم يكن أحد آخر، لم يحدد بالاسم، يحاول سرقتها؟ وليس هنا مفتاح يدلنا على طبيعة التهديد سوى كلمات «البروتستانتية الإصلاحية» على ما يبدو. ومن هناك يصبح التهديد أوضح قليلاً. إنه تهديد معاد للبروتستانتية، وبعبارة أخرى هو التهديد الكاثوليكى الرومانى - وهو البابا الذى صوره چون بونيان فى قصته الخرافية.

والإشارة إلى التهديد الكاثوليكى يصبح أكثر وضوحًا إذا ما أخذ المرء فى اعتباره التاريخ الماضى لقسم التتويج فى انجلترا. فقد كان القسم الذى أقسمته الملكة إليزابيث الثانية فى دير وستمنستر بالتمسك بالديانة البروتستانتية، كان أحد قسمين يتطلبها القانون الدستورى الإنجليزى. وفى صعودها على العرش بعد وفاة والدها الملك چورچ السادس، كان مطلوبًا منها أيضًا أن تقسم أمام البرلمان؛ «إننى أعترف برصانة وإخلاص فى حضور الرب، وأشهد وأعلن أننى بروتستانتية مؤمنة وأننى سوف أبقى كذلك، حسب القصد الحقيقى للقوانين، وسوف أضمن التتابع البروتستانتى إلى عرش مملكتى، وأتمسك وأحافظ على مثل هذه القوانين قدر طاقتى».

كانت تلك هى صيغة الكلمات التى أقرها البرلمان منذ سنة ١٩١٠م، حينما تمت مراجعتها بناء على إصرار چورچ الخامس الذى كان قد اعتلى العرش لتوه بعد وفاة إدوارد السابع؛ إذ إنه اعتبر أن القسم الذى أقسمه أبوه سنة ١٩٠٢م إهانة وعدوانا

على كثيرين من الرعايا الكاثوليك الرومان فى الإمبراطورية البريطانية ـ ولا غرو، فإن كلمات القسم قبل سنة ١٩١٠ درس موضوعى فى كيفية إمكان جعله عدوانيا. وكانت هناك شكاوى مريرة بشأن الكلمات التى لم تراجع فى القسم، جهر بها الكاثوليك فى أيرلندا واستراليا، التى يسكن بها عدد كبير من الأيرلنديين الكاثوليك، وفى كندا التى يسكن بها كثيرون من الكاثوليك الفرنسيين، وكذلك المحاولات المختلفة للتعديلات فى مجلس العموم. ولذلك كانت صيغة القسم سنة ١٩٥٣م صيغة توفيقية.

كان الإعلان الملكى الذى كان على الملكة إليزابيث أن تعلنه أمام البرلمان، والذى أقسمه بالفعل إدوارد السابع وڤيكتوريا وكل الملوك منذ وليم ومارى سنة ١٦٨٩م بالفعل. كالتالى:

«أنا . . . . برحمة الرب، ملك (أو ملكة) انجلترا وسكوتلندا، وأيرلندا، المدافع عن العقيدة، أنطق برصانة وإخلاص فى حضرة الرب، وأشهد وأعلن أننى أؤمن أنه فى العشاء الربانى ليس هناك حلول لعناصر الخبز والنبيذ فى جسد المسيح ودمه عند عمل القداس أو بعده من جانب أى شخص كان: وأن بدعة أو تبجيل مريم العذراء أو أى من القديسين الآخرين، والتضحية فى صلاة القداس، كما تستخدم الآن فى كنيسة روما، أمور خرافية ووثنية. كما أننى برصانة أنطق وأشهد وأعلن فى حضرة الرب، أننى فعلاً أصرح بهذا الإعلان، ومن ثم كل جزء، بالمعنى الواضح والمعتاد للكلمات التى تليت على، والتى يفهمها عمومًا البروتستانت الإنجليز».

كانت المذاهب التى يجب إنكارها هى المذاهب المميزة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية والتى كانت كنيسة انجلترا ترفضها، ولذلك كان من الشائع عالميًا أن الكاثوليك الرومان المؤمنين لا يمكنهم أن يقسموا هذا القسم. والمادة ٢٢ من المواد التسع والثلاثين فى ديانة كنيسة انجلترا أعلنت: «إن المذهب الرومانى الخاص بالتطهر، والمغفرة، والعبادة والعشق الدينى، وكذلك فيما يتعلق بالصور والذخائر المقدسة، وكذلك تبجيل القديسين، هو شىء بعيد التحقيق مبتدع بلا فائدة، ولا يقوم على أى أساس من الكتاب المقدس، ولكنه بالأحرى، رفض لكلمة الرب». وقد قررت المادة ٢٨: «إن الحلول أو تحول مادة الخبز والنبيذ فى العشاء الربانى لا يمكن البرهنة عليه من

الكتاب المقدس، ولكنه خروج على كلمات الكتاب المقدس الواضحة، ويطيح بطبيعة السر المقدس، كما أنه أتاح الفرصة لظهور خرافات كثيرة». والمادة ٣١ أدانت التضحيات فى صلاة القداس، والتى يشيع فيها القول إن الكاهن قدم المسيح للمريض والميت لكى يرفع عنه الألم أو الذنب، كما أنها وصمت هذه الأمور بأنها خرافات وتجديف، وخداع خطير. ومنذ سنة ١٨٦٥ كان على رجال كنيسة انجلترا أن يعلنوا أن المذهب الذى تتضمنه المواد «يتوافق مع كلمة الرب» التى كان مفهومًا أن من الزيف أن يحلفوا بأنها توافقهم، وهو ما كان يطلب منهم القيام به من قبل.

وطلب أداء يمين التتويج قد أرسى فى مرسوم الاستيطان سنة ١٧٠١م. وهذا أيضا يعلن أن أى شخص «يأخذ التاج أو يرثه... ويتصالح أو سوف يتصالح مع كنيسة روما أو يتصل بها، أو ينطق بالديانة الرومية، أو يتزوج أحد رعاياها... سوف يعامل كما لو كان ميتًا من الناحية القانونية بالنسبة لمسألة اعتلاء العرش، ويتم تجاوزه بحيث يمر التاج إلى من يليه فى أحقية العرش (بشرط ألا يكون من يلونه فى خط الوراثة غير مؤهلين مثله)». ويعلن المرسوم أيضًا أن «كل من يأخذ هذا التاج من الآن فصاعدًا، سوف يرتبط بكنيسة انجلترا، حسبما قرره القانون المستقر».

وكون هذا القسم العام غير العادى كان مطلوبًا من الحاكم البريطانى أمر يدعو إلى السخرية إلى حدما. فبحلول سنة ١٩١٠م لم يعد مطلوبًا من أى من رعاياه أن يقسم هذا القسم. وكان هذا عكس الحالة التى تقدم فيها هذه الكلمات للمرة الأولى، وتحت ما كان معروفا باسم «مرسوم الاختبار» - وهو مصطلح يدل على سلسلة من القوانين المضادة للكاثوليكية، بعضها يمكن تطبيقه على انجلترا، وبعضها على أيرلندا، وبعضها على المستعمرات. **ففى البداية، كان القسم المعادى للكاثوليكية مطلوبًا من الرعايا، ولكن ليس من الحاكم. وأداء هذا القسم كان شرطًا للتعيين فى وظائف كنيسة انجلترا، وشرطا لدخول جامعتى أوكسفورد وكمبردج، وشرطًا للالتحاق بالجيش أو البحرية الملكية، ولا بد من أداء هذا القسم للانضمام إلى السلك القضائى أو للدخول فى عضوية البرلمان.**

ويرجع أكثر الأيمانات تطرفًا فى مرسوم الاختبار إلى سنة ١٦٧٨م. وكانت تلك هى سنة الكشف المزعوم الذى قام به شخص يدعى تيتوس أواتيس لمؤامرة أعدها

عدد من الكاثوليك، وفيهم بعض الچيزويت، لقتل الملك شارل الثانى وإجلاس دوق يورك (وهو الملك چيمس الثانى فيما بعد، والذى كان آخر ملوك انجلترا الكاثوليك) على العرش مكانه. وقبل أن تدرك السلطات أن أواتيس قد لفق الأمر كله، كان قد اتهم حوالى خمسة وثلاثين شخصا من الكاثوليك بتهمة الخيانة، وكان آخر ضحية فى سنة ١٦٨١م، هو كبير أساقفة أرماغ الكاثوليكى، أوليفر بلنكت، الذى تم تكريسه الآن شهيداً فى الكنيسة الكاثوليكية. وقد كان الكاثوليكى الأخير الذى يموت فى سبيل العقيدة فى انجلترا. وقد لحق العار بتيتوس أواتس، وسجن كما فرضت عليه غرامة مالية وتم جلده، ولكنه عاد إلى الحظوة مرة أخرى بعد سقوط الملك چيمس الثانى، وأعطته الدولة معاشا تقاعديًا.

وكانت هناك أيمانات ضد الكاثوليكية قبل سنة ١٦٧٨م، وكان أحدها يصر على أن من يؤدى القسم يجب أن ينكر حق البابا فى عزل أى حاكم إنجليزى (وهو ما نتج عن الحرمان البابوى الذى أصدره البابا ضد الملكة إليزابيث الأولى ومحاولة عزلها سنة ١٥٧٠). بل كان هناك قسم أكثر بساطة يعود إلى القرن السابع عشر ينكر مذهب الحلول الكاثوليكى، تسبب فى أن يستقيل دوق يورك من منصبه كقائد بحرى أعلى Lord High Admiral. ولكن من دلائل التناقض، أنه بينما كان ممنوعًا بالقانون من خدمة أخيه الملك، فإن القانون نفسه لم يكن يمنعه من أن يصبح هو نفسه الملك. وكان أحد مشروعاته الكبرى خلال فترة حكمه القصير، وأيضا أحد الأسباب الكبرى فى خلعه بواسطة البرلمان سنة ١٦٨٨م، يتمثل فى رغبته فى إلغاء مرسوم الاختبار أو تعديله على الأقل (وكان قد أوقفه بالفعل فى نيويورك حينما كانت لفترة من الزمن تحت إدارته المباشرة باعتباره دوق يورك. بل إنه عين حاكما كاثوليكيًا وموظفًا كاثوليكيًا آخر).

وكان بعض الكاثوليك قد حاولوا بالفعل تحييد قوة الصيغة السابقة بأنها لم تكن تعنى ما يبدو أنها تعنيه. ومن ثم جاءت الإشارة الغريبة فى نسخة سنة ١٦٧٨ إلى «المعنى العادى والواضح للكلمات التى تليت علىّ، كما هى مفهومة بشكل عام من جانب البروتستانت الإنجليز». وعلى الرغم من الدّس فى اللغة، فلم يكن الكاثوليك يعتقدون أن البابا يمكن أن يعفو الناس من القسم إذا ما تم أداؤه. وربما كان البرلمان الإنجليزى يفكر فى نفسه. إذ كان يدعى أن له سلطة الإعفاء من القسم، وألغى يمين

الولاء للملك چيمس الثانى بعد أن سيق إلى المنفى سنة ١٦٨٨م. ورفض ثمانية أساقفة من كنيسة انجلترا، كان معظمهم معارضين لسياسات چيمس الثانى الدينية، أن يتخلوا عن يمين الولاء الذين أقسموا عليه، وفقدوا وظائفهم. وكان هناك حوالى ٤٠٠ من رجال الكنيسة الأنجليكانية أيضا بين هؤلاء «اللامحلفين».

وقد تم إلغاء مرسوم الاختبار نهائيًا سنة ١٨٢٩م، على الرغم من أن الشائعات بأن الحكومة تنوى إلغاءه كانت أحد العوامل التى أدت إلى أحداث شغب جوردون فى لندن سنة ١٧٨٠م. **والواقع أن الإلغاء الحقيقى لمرسوم الاختبار فى كندا كان من الأسباب التى أسهمت فى الحرب الثورية الأمريكية ضد البريطانيين، ومن ثم استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا. وكان الغزو العسكرى لكندا - بما فيه الحصار القصير المدى للعاصمة كويبك - كان أحد أوائل المغامرات التى قامت بها القوات العسكرية للجمهورية الجديدة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وأقلها نجاحًا.**

وقد صمم مرسوم كويبك الذى صدر سنة ١٧٧٤م للتعامل مع الأسئلة الكبرى التى ثارت أثناء محاولة جعل المستعمرة الفرنسية فى كندا إحدى مقاطعات الإمبراطورية البريطانية فى أمريكا الشمالية. ومن بين هذه الأسئلة كان السؤال عما إذا كان يمكن جمع مجلس عندما يكون كل سكان مقاطعة كويبك تقريبا، من الكاثوليك الرومان، وبالتالى سيكونون بسبب مرسوم الاختبار، لا يصلحون قانونًا لأن يمثلوا الشعب، وما إذا كان سيسمح لممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية بالاستمرار، وعلى أية شروط؛ وما إذا كان القانون الفرنسى أو الإنجليزى هو الذى سوف يستخدم فى ساحات العدالة.

والمرسوم، بإعلانه أن ليس من المناسب دعوة مجلس للانعقاد، وضع سلطة التشريع فى أيدى الحاكم ومجلسه الاستشارى. ولكن ممارسات الديانة الكاثوليكية الرومانية صارت مسموحًا بها، وخولت الكنيسة سلطة الاستمرار فى جمع العشور. واكتسحت أمواج الأحداث مرسوم الاختبار، واستبدل قسم الولاء بحيث يتم السماح للكاثوليك الرومان بتولى الوظائف. وقد أدى هذا إلى انتشار المخاوف فى المستعمرات الأمريكية من أن مرسوم كويبك قد يرى إحياء الحكم

الفرنسى؛ لأن فرنسا فى ذلك الوقت كان ينظر إليها على أنها من الممكن أن تعادى المستعمرات لحساب بريطانيا.

ولكن دائرة المعارف البريطانية، والتى منها أخذنا هذا الملخص للقصة، سياسية فى توجهها أكثر من اللازم. فقد فشلت فى أن تذكر التأثير القوى للشعور الخالص بمعاداة الكاثوليكية على غزو كندا. **فعلى سبيل المثال، كان الكونجرس القارى، الذى اجتمع فى سبتمبر ١٧٧٤م، قد عبر عن غضبه الشديد للجمهور البريطانى من أن «البرلمان البريطانى ما كان يجب أن يوافق أبدًا على أن يؤسس فى هذه البلاد، أى كويبك، ديانة أغرقت جزيرتكم فى الدماء»**. ومن الواضح أن أعضاء الكونجرس كانوا معتادين على اضطهاد البروتستانت فى القرن السادس عشر تحت حكم الملكة مارى الأولى الدموية حسبما ورد فى كتاب فوكس «كتاب الشهداء - Book of Martyrs»، وأخذوها أمرًا مسلمًا به أن البريطانيين سيوقعون بهم نفس الاضطهاد. وصحيفة Pennsylvania Packet قالت إنه لم يكن هناك أبدا من قبل مثل هذه المحاولات المكشوفة ضد نجاح الديانة البروتستانتية. ويوم البابا فى الخامس من نوفمبر (يوم جاى فوكيس بالنسبة للإنجليز) تم الاحتفال به بنوع خاص من الغضب سنة ١٧٧٤م. وعلى أية حال، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى منع واشنطون جيشه من الاحتفال باليوم، خوفًا من إغضاب أصدقاء أمريكا الكاثوليك الجدد، أى الفرنسيين.

هكذا تغذت الحملة على كندا بنفس الغضب البروتستانتى الذى تسبب فى قيام غوغاء لندن بأعمال الشغب بعد ذلك بخمس سنوات، وحرقوا ونهبوا كل ممتلكات الكاثوليك التى استطاعوا العثور عليها فى أنحاء المدينة. وكان هدف المشاغبين المباشر هو مرسوم التخفيف عن الكاثوليك الصادر سنة ١٧٧٨م، والذى ألغى بعض العقوبات القانونية على ممارسة العقيدة الكاثوليكية. ولم يذهب إلى المدى الذى ذهب إليه مرسوم كويبك بحيث يلغى مرسوم الاختبار، على الرغم من أن اللورد جوردون قائد الشغب كان به هوى إلى افتراض أن ذلك سوف يأتى فيما بعد. ورواية تشارلز ديكنز «Barnaly Rudge» تقدم لنا صورة حية عن الواقعة. ولكن لا غزو كندا، ولا أحداث الشغب فى لندن، قد جلبت أية فوائد لزعمائها. إذ تم القبض على اللورد جوردون وحوكم ثم عزل، ولكنه فيما بعد مات بالسجن فى مسألة أخرى لا علاقة لها بالموضوع. أما بندكت أرنولد، القائد الأعلى للقوات

العسكرية الذى نجا من الحملة الكندية، فقد خان جماعته لصالح البريطانيين، وهو يصنف بوصفه خائنًا حتى اليوم.

هذا العدوان الأمريكى على التراب الكندى حال دون أى احتمال لأن ينضم غالبية الكنديين لجيرانهم الجنوبيين فى التمرد ضد التاج (على الرغم من أن بعض الكنديين البروتستانت المتشددين ارتحلوا بالفعل إلى الجنوب عندما انتهت الحرب ضد بريطانيا)، وكذلك لم تكن الأيمان التى تقسم بكبت الكاثوليكية لصالح أمريكا الشمالية بعد ذلك. وربما كانت لحقيقة أن الكاثوليك من فرنسا حاربوا فى الجانب الأمريكى أثرها على الرأى العام الوطنى. **والمادة رقم ٦ من دستور الولايات المتحدة، والسارى منذ سنة ١٧٨٩م، أرست مبدأ أنه «لن يطلب أى اختبار دينى أبدًا كمؤهل لشغل أى منصب أو وظيفة عامة فى الولايات المتحدة»**. واستخدام كلمة اختبار يحمل دلالة واضحة؛ إذ إن هناك شرطًا مماثلاً مكتوبًا فى دساتير معظم الولايات الأمريكية.

ورای رفائيل فى كتابه The American Revolution ,a Peoples History صريح بشكل محمود فيما يخص التعصب الكامن وراء الحملة الكندية.

«وإذ كان القادة العسكريون الأمريكيون يأملون فى إحياء الحماسة الوطنية، فإنهم قرروا أن يأخذوا زمام المبادرة بأن يضربوا حيثما يكون البريطانيون ضعافًا. وفى المقابل يصعب رؤية كيف أن غزو مستعمرة أجنبية له علاقة بالحرب ضد الطغيان داخل الوطن، **بيد أن الأمريكيين المنغمسين فى الديانة البروتستانتية لم يجدوا مشكلة كبيرة فى صياغة وتلفيق الحافز لغزو معقل الكاثوليكية على حدودهم الشمالية**. إذ كانت بريطانيا منذ وقت قصير قد وضعت كل الأراضى غرب الأپالاش تحت السيطرة الكندية، بينما منحت فى الوقت نفسه الاعتراف الرسمى بالكنيسة الكاثوليكية فى كويبك. ولاحظ البروتستانت الأمريكيون من كل المذاهب من الشماليين الجماعيين حتى الجنوبيين الأنجليكانيين، التشابه الواضح بين الطغيان السياسى للملك البريطانى والطغيان الدينى للبابا الكاثوليكى: وفى كل من الحالين كان ثمة حاكم مستبد يتدخل فى حرية الأفراد بحيث يحول بينهم وبين أن يعيشوا ويتعبدوا كما يشاءون. وكانت الحملة على كندا، وهى عملية تنظيف قارية باسم

الحرية الدينية والسياسية، تحمل وعوداً بخلع الطاغيتين فى الحال. **وهنا حدث الشغب الأكبر فى يوم البابا - ولم يكتف بحرق الممتلكات هذه المرة. وتكلم أحد قساوسة الجيش عن الكثيرين عندما كتب فى يومياته: «كانت مشاهدات بهيجة عن اليوم المجيد للسلام العالمى وانتشار الإنجيل فى أنحاء هذه البلاد الشاسعة الممتدة، والتى كانت على مدى العصور سكنًا للشيطان ومملكة للمسيح الدجال».**

وفى ضوء هذا، فلا غرابة فى أنه قبل التتويج سنة ١٩٠٢م والتتويج سنة ١٩١٠م كانت الحكومة الكندية تضغط بشدة لتعديل الإعلان الملكى الذى يعلنه الملك البريطانى (والذى كان أيضا رئيس الدولة فى كندا) عند بداية حكمه. وكان المشرعون الكنديون قد تحرروا من اضطرارهم لأداء اليمين بمثل هذا الإعلان المجافى والمعادى للكاثوليكية سنة ١٧٧٤م، كما تعين عليهم فى الواقع أن يحاربوا لدفع غزو أمريكى كان غرضه الرئيسى، بلا شك، هو إعادة فرض هذا الإعلان بالبندقية التى تحارب فى سبيل الحرية. وكون أن هذا لم يكن موضوعًا محبوبا لدى المؤرخين الأمريكيين لفت انتباه كيڤين فيليپس فى كتابه «The Cousins Wars»: **«بالنسبة لكثير من البريتون والمستعمرين البريطانيين فى القرن الثامن عشر، كان المذهب الكاثوليكى الرومانى مؤامرة يقودها البابا لصالح الديانة الوثنية والحكومة الفردية المستبدة الطاغية... وقد تابع المؤرخون البريطانيون هذا الإصرار الدينى بهمة أكثر بكثير من زملائهم الأمريكيين، ولكن كلاً من البلدين قد تأثر بهذا».**

وفى كتابه «The Language of Liberty» سمى المؤرخ چـ. سى. دى كلارك خبث وقوة المعاداة الأمريكية الشعبية للكاثوليكية: الموضوع المكبوت فى التاريخ الاستعمارى الأمريكى. وكتاب التاريخ الذى ألفه رفائيل يؤكد هذا بدلاً من أن يواجهه؛ لأنه كتب بعد كتابه تعليق فيليپس، ولأنه نوع ما من التاريخ المضاد، نظرة مراجعة للفروض المقبولة فى التاريخ الأمريكى.

ويمتدح فيليپس البريطانيين لكونهم أكثر أمانة فى هذا الجانب من ماضيهم. حقًا أن كل آثار معادة الكاثويكية قد أزيلت من الجوانب العامة والطقسية فى دستور الولايات المتحدة، وبداية تولى رئيس جديد مهام منصبه، عملية إذا لم تكن كلها علمانية فهى على الأقل ليست مناسبة مذهبية أو طائفية. ولم يكن هذا قد صار بعد هو المعمول به

فى الطقوس البريطانية المشابهة، أى مراسم التتويج. ولكن الاحتفال الأمريكى يميل إلى أن يعنى ما يقوله، على حين أن الاحتفال البريطانى لم يعد يفعل ذلك.

ولا ينبغى افتراض أن القصد العمد لأولئك الذين يشاركون فى مراسم التتويج هو عزل أو استبعاد أى كاثوليك حقيقيين أحياء، بأكثر مما كان قصد الناس الذين احتفلوا بيوم جاى فوكيس فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر سنويًا. فالواقع أن رئيس الاحتفالات فى دير وستمنستر يوم ٢ يونيو ١٩٥٣ ـ مثلما كان الحال فى حفل تتويج والد الملكة، الملك چورچ السادس سنة ١٩٣٧م ـ كان بحكم التقاليد هو الأيرل مارشال لانجلترا، وهو منصب يتولاه أسمى النبلاء غير الملكيين فى المملكة وهو الدوق السادس عشر لنورفولك. وقد كان نورفولك كاثوليكيا رومانيًا راسخًا مثل أجداده ـ إذ كان أحدهم قد كرسه البابا شهيدًا كاثوليكيًا فيما بعد فى القرن السادس عشر. ومثلما شرحت بمزيد من التفاصيل فى فصول أخرى من هذا الكتاب، فإن الوظيفة الحقيقية لمعاداة الكاثوليكية فى النظرية الدستورية الإنجليزية منذ عصر الإصلاح الدينى كانت حماية الهوية الدينية والسياسية للدولة الوطنية الإنجليزية؛ إذ إن الكاثوليكية الرومانية تقوض الأساس اللاهوتى لهذه الهوية. وبطبيعة الحال، فإن هذه المعاداة المؤسسية للكاثوليكية ساعد عليها الانحياز الشخصى ضد الكاثوليك الأفراد. فقد كان من الأسهل إقناع الجماهير بأن الكاثوليكية مدانة إذا ما كان أولئك الذين يمارسون هذه العقيدة يصورون على أنهم مستهترون، بلا أخلاق وخونة (سواء كان ذلك حقيقة أم لا).

وثمة اعتراض خطير على هذه الطريقة فى فك رموز التتويج يمكن توقعه. وهو أنه على الرغم من الرمزية فإن أولئك المشاركين لم يكن لديهم أى وقت للمشاعر المعادية للكاثوليكية، وأنهم اعتبروا اليمين بالحفاظ على كنيسة انجلترا، مثل تحفة قديمة وبالجملة بقايا فارغة تنتمى إلى زمن غابر (تمامًا مثلما لو كان على الملكة أن تقسم على الحفاظ على سجل المآثر فى برج لندن). ومنذ ذلك الحين فصاعدا تجلت الهوية الوطنية الإنجليزية بثقة فى التتويج، بحيث إنها لم تكن بحاجة إلى أن تعرف نفسها بواسطة معارضة بعض الديانات الأخرى؛ إذ إن هذا ربما أعطى الكاثوليكية أهمية فى هيكل الأمور الإنجليزى أكثر مما تستحقه بالفعل.

وباعتباره ملاحظة اجتماعية يكتسى الاعتراض بعض الأهمية؛ إذ إن الحالة الفعلية للكاثوليكية فى انجلترا فى خسمينيات القرن العشرين كانت حقًا إلى حد كبير لا علاقة لها بالفهم الذاتى الوطنى. إذ كانت لها أجندتها الخاصة، التى كانت تؤثر على بقية الوطن فقط حينما يكون هناك تصادم مصالح. وكما كتبت فى The worlock Archive كانت الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية سنة ١٩٥٣م، تحت قيادة الكاردينال برنارد جريفين، ولأسباب اجتماعية وتاريخية جيدة تمامًا، أبعد ما تكون عن العزلة. فقد حافظت على نفسها لنفسها. والواقع أن المراسم الأنجليكانية الخالصة فى التتويج فى تلك السنة ربما كانت مصممة على أساس إبعادها. فقد جددت الوطن بطريقة جعلت الكاثوليك يشعرون أنهم، وإن لم يستبعدوا تمامًا، فإنهم كانوا على الهامش. بيد أن الكاثوليك الإنجليز لم يكونوا راغبين فى تحدى الصعود الأنجليكانى بأى حال. ذلك أنهم فضلوا أن يهتموا بشئونهم الخاصة.

* * *